طريق النور

الطبعة الأولى ١٤٤٤ هـ

طريق النور

أو

(نور على نور)

تأليف

محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله نور السموات والأرض ومن فيهن، والحمد لله قيوم السموات والأرض ومن فيهن، والحمد لله رب السموات والأرض ومن فيهن، أحمده حمدًا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وأشهد أنْ لا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك له، شهادةً ينشرح بها الصدر، ويستنير بها القلب، فيتبدد ظلامه، وتزول علله وأسقامه، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، وخيرته من خلقه وخليله، أرسله بالهدى ودين الحق، شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

أما بعد، فإن الله عز وجل نور، ووحيه نور، وكتابه نور، ودينه نور، ورسوله ﷺ نور، وفطرته التي فطر الناس عليها نور، وخَلَق سبحانه الخَلْقَ وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره اهتدى، ومن أخطأه ضل، وهو سبحانه يهدي لنوره من يشاء، ويخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، وهم لهم في الدنيا نور، وعند الموت نور، وفي القبر نور، وعلى الصراط نور، ويوم القيامة تشرق الأرض بنور ربها، والجنة نور، والعلم نور، والذكر نور، والصلاة نور، والطاعات كلها نور، والكفر ظلمات، والشرك ظلمات، والنفاق ظلمات، والجهل ظلمات، والغفلة ظلمات، والمعاصي كبيرها وصغيرها، والبدع، كل ذلك ظلمات بعضها فوق بعض، كما سيأتي بيان ذلك كله.

والنور حياة الأرواح، وهي ميتة دونه، مثلما أن الأرواح حياة الأجساد، وهي ميتة دونها، فكل روح فقدت النور ماتت، وكل جسد فقد الروح مات، فالمؤمنون أجسادهم حية بأرواحهم، وأرواحهم حية بنور الإيمان والقرآن والهداية، والكافرون أجسادهم حية، وأرواحهم ميتة، لفقدها النور، الذي لا يعطيه إلا الله عز وجل، ولا مَصْدر له إلا وحيّه.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقال سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

وهذا هو الصمم والبَكَم والعمى المعنوي الروحي، لمن أظلمت أرواحهم، ولم يصلها النور، فهم صُمٌّ عن الحق لا يسمعونه سمع إجابة، وبُكْمٌ لا ينطقون به، وعُمْيٌ لا يرونه رؤيةً تنفعهم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

قال ابن القيم[١]: «فشَبَّه أكثرَ الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعونهم الرسلُ ويهدونهم السبيلَ فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتُؤْثِره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل له أضل وأسوأ حالًا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه». اهـ.

(١) «الأمثال في القرآن» (٢/ ١٢-١٣).

وقال الزمخشري: «فإن قلت: كيف جُعِلوا أضل من الإنعام؟ قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المَشْرع الهَنِيّ[1]، والعذب الرَوِيّ». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

قال ابن القيم[2]: «الشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته». اهـ.

فإذا كان أمر النور كما قدمنا فقد ظهر مُجْمَل طُرِقِ تحصيله، وهي: بالإسلام لله عز وجل، والإيمان به، واتباع كتابه، وبعبادته وطاعته، والائتمار بأمره والانتهاء عن نهيه، وبطاعة رسوله ﷺ، والاهتداء بهديه، والتخلق بخُلُقه، ويجمعها كلمة واحدة هي: عبادة الله وحده لا شريك له، وهي الغاية التي خَلق اللهُ الخلق من أجلها، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

والعبادة ـ كما قال شيخ الإسلام[3] ـ: «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء

(١) المَشرع والمَشرعة والشريعة: مورد الماء.
(٢) «الوابل الصيب» (ص ٥٠).
(٣) «العبودية» (ص ٤٤).

بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك، من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة لله، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]». اهـ.

قلت: فبقدر ما يُحَصِّل العبد من عبادة ربه عز وجل، وبقدر ما يقوم به منها، وبقدر تحسينها واتقانها، وبقدر اجتناب ما يضادها، من الكفر والشرك والمعاصي، يكون نصيبه من النور، وتخلُّصه من الظلمات، وهذا وذاك درجات وأنواع كثيرة، لا يحصيها إلا الله عز وجل.

ولا يتسنى للعبد معرفتها والاطلاع على أصولها وفروعها إلا بالعلم، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

والعلم أيضًا درجات، ولا ينتفع صاحبه بظاهره، ولا يجد فائدته على وجه التمام، حتى يباشر قلبَه، ولا يَقطف ثمرتَه، حتى يَجمع عليه همتَه، وحتى يكرره ويتعاهده، إلى أن يرسخ في قلبه، عندها لن تؤثر فيه الشهوات، ولن تضعفه الشبهات، ويُعَبَّر عنه حينها بـ«اليقين».

فاليقين هو: رسوخ العلم، وثبوت الإيمان، وتمكُّن الاعتقاد، فلا شك ولا تردد.

قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥].

أي: لو تعلمون علم اليقين لما أشغلكم شيء عن طاعة الله تعالى، ولسارعتم إلى رضاه، ولبذلتم الجهد في ذلك، ولفعلتم وفعلتم، ولما قصرتم قط، ولما غرتكم الحياة الدنيا، ولا ألهاكم التكاثر فيها.

والتوفيق بيد الله تعالى وحده، والهداية منه عز وجل، فليُعن عبدٌ بالإقبال على ربه وسؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم.

هذا، وإن لي مع النور قصة، وهي ما حملني على تسطير هذا الكتاب، وذلك بعد أكثر من نصف قرن من نبئها!

وهي أنني كنت أعيش وأنا دون سن الاحتلام في بيت والديّ كأي صغير يعيش في كنف أبَويه، وكنت أكره الضجة والضوضاء، وأنفر مما الناس فيه من صخب الحياة، وهذه الأشياء كانت في بيت والديّ ـ وللأسف ـ فوق العادة وأكثر من الطبيعي، وكنت أود لو أهرب منها، فأجد ساعة هدوء تطالبني بها نفسي، لكن أنّى لمن هو في مثل سني أن يحصل له ذلك، ولكن من تقدير الله عز وجل ولطفه بي أنّ والدَي أمي كانا يسكنان معنا في جزء من البيت، وكانا وحدهما، فكنت كثيرًا ما آوي إليهما، وأعيش معهما، وأبيت عندهما الليالي، وأحصل على ما أنشده من الهدوء والراحة، خصوصًا أنني وأنا بصحبتهما لا أسمع ولا أرى منهما إلا ذكر الله تعالى وما والاه، من الصلاة والذكر والتسبيح وكثرة الصلاة على النبي ﷺ، فلا ضجة أغاني وموسيقى، ولا صَخَب ولا جَلَبَة، وما هو إلا المذياع يَقْصراه غالبًا على سماع القرآن، وهنا شاهد القصة، حيث بدأ المذياع يومًا يبث آية النور، بصوت الشيخ محمد رفعت، وما أعظمها من آية، وما أعظم ما احتوت عليه من معانٍ عظيمة! وما أجمل تكرار ذِكر النور فيها! وهي من الشيخ رفعت في قمة الإبداع، وغاية التأثير، وما أن سمعتها منه لأول مرة، وما أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، حتى وقع في قلبي من الهيبة

والجلال، وسرى في روحي من نور الهداية والإيمان، ما لا يوصف، ولا يعبر عنه بلسان، فانقلب كياني، وارتجف جَناني، وكأنني بنفسي إنسان آخر، وصرت أرقب بثها باستمرار، وأداوم سماعها ليل نهار، وانخلعت وقتها من لهو الدنيا ولعبها، رغم صغر سني وطفولتي، وتحولت حياتي إلى ما اعتبرته حينها غاية المرغوب، ونهاية المطلوب، ومن الله تعالى وحده الهداية، وله الحمد في البداية والنهاية.

ومِن مِنّته سبحانه وتعالى عليَّ أن أَدامَ أَثَرَ تلك الساعة في قلبي إلى الآن، وصار سماع هذه الآية أحب إليّ من شرب الماء البارد على الظمأ، وأضحت حاديًا لنفسي في طريقها إلى الله تعالى، أُلقيها على مسامعها كلما تاقت إلى النور واشتاقت، وكلما وَنَت أو جمحت.

وقد أشرت إلى هذا في كتابي «معاتبة النفس»، وقلت هناك: يا نفس، كرري على مسامعك وقلبك كل ما كان له أثرٌ في توبتك وهدايتك وصلاحك، من آية أو حديث، أو موعظة أو حكمة، أو نعمة أو محنة، أو غير ذلك.

وبالله التوفيق.

محمد شومان ١٤٤٣هـ

الله نور

قال الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور:٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [الزمر:٦٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ». الحديث(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(٢).

وعن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر، قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»(٣).

وفي لفظ: عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيتُ رسولَ الله

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩) وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨) وغيره.

ﷺ لسألتُه. فقال: عن أي شيء كنتَ تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت، فقال: «رَأَيْتُ نُورًا».

يعني: أنه ﷺ رأى نورًا حجب عنه الرؤية.

قال ابن القيم[١]: «وقد فُسِّر: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. الآية. بكونه: منوِّر السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض! وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائمٌ به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله. فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]. الآية[٢]. فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء. ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور[٣]: «أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني، لا إلٰه إلا أنت».

وفي الأثر الآخر: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات». فأخبر ﷺ أن الظلمات أشرقت لنور وجهه، كما أخبر تعالى: أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي «معجم الطبراني» و«السنة» له، و«كتاب عثمان الدارمي»، وغيرها، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه.

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض، وأما من فسرها بأنه منوّر السماوات

(١) انظر «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/٤٤-٤٦).

(٢) وهذه إضافة كما تضاف إليه حياته وسمعه وبصره، سبحانه. فتأمل!

(٣) وإسناده ضعيف، وكذلك الآثار التي بعده.

والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها». اهـ

قال شيخ الإسلام(١): «قول من قال من السلف: هادي أهل السموات والأرض، لا يمنع أن يكون في نفسه نورًا، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعضَ صفات المفسَّر من الأسماء أو بعضَ أنواعه، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمَّى».

وقال(٢): «وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها، فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نورًا؟!».

وقال(٣): «ثم إن الله تعالى ضرب مَثَل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح، وهو(٤) في نفسه نور، وهو مُنَوِّر لغيره، فإذا كان نوره في القلوب هو نور وهو مُنَوِّر فهو في نفسه أحق بذلك، وقد عُلِم أن كل ما هو نور فهو مُنَوِّر».

وقال ابن القيم(٥): «وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾. الآية. هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن، كما قال أُبَيّ بن كعب وغيره، وقد اختُلف في تفسير «الضمير» في نوره، فقيل: هو النبي ﷺ؛ أي: مثل نور محمد ﷺ، وقيل: تفسيره المؤمن؛ أي: مثل نور المؤمن، والصحيح أنه يعود على الله عز وجل، والمعنى: مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ، فهذا مع ما تَضَمَنَه عَوْدُ الضمير إلى المذكور ـ وهو وجه الكلام ـ يتضمن التقاديرَ الثلاثة، وهو أتم معنًى ولفظًا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/٣٩٠)، وانظر ـ إن شئت ـ (٦/٣٨٣، وما بعدها).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦-٣٩٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٦-٣٩٢).

(٤) يعني: المصباح.

(٥) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/٤٩-٥٣).

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى، إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل، ومحل، وحامل، ومادة، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل.

فالفاعل: هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء، والقابل: العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحامل: همته وعزيمته وإرادته، والمادة: قوله وعمله.

وهذا التشبيه العجيب، الذي تضمنته الآية، فيه من الأسرار والمعاني، وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره، ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم.

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان: أحدهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذًا وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن، من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبَّه ومقابلته بجزء من المشبَّه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن الكريم.

فتأمل صفة مشكاة، وهي كُوَّة لا تنفذ، لتكون أجمع للضوء، قد وُضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودًا، من زيت شجرة في وسط القَرَاح(١)، لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي في وسط القَرَاح، محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصَّه به.

---

(١) أي: الأرض المخصصة للزرع. والقراح: الخالص من كل شيء.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة قلبه، وشبّه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة: فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى، وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: القلوب آنية الله في أرضه، وأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها.

والمصباح: هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي، فيُريه عقلُه وفطرتُه وذَوْقُه أن الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور، عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشُّبَه الباطلة، والخيالات الفاسدة، من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات، فهي في صدره كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق بني آدم كلهم أتمَّ انتظام، واشتملت عليه أكمل اشتمال!». اهـ.

ثم قال الله عز وجل بعد آية النور: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ * لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ * أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٣٦-٤٠].

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾، قال ابن كثير: «لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يُعبَد فيها ويُوحَّد، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾؛ أي: أمر الله تعالى برفعها؛ أي: بتطهيرها من الدنس واللغو، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها».

وقال في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾. الآيتين: «هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار:

فأما الأول من هذين المثلين: فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثَلهم في ذلك كالسراب الذي يُرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طامّ، والقيعة: جمع قاع، كجار وجِيرة، والقاع أيضًا: واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار، وأما الآل فإنما يكون أول

النهار، يُرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسبه ماءً فقصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملًا وأنه قد حصل شيئًا، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئًا بالكلية قد قُبِل، إما لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. وقال هاهنا: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وهكذا روي عن أُبَيّ بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغير واحد. وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب.

فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الطَّماطِم[1] الأغشام المقلدون لأئمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾: قال قتادة: وهو العميق. ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾؛ أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مَثَل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يدري أين يذهب، ولا هو يعرف حال من يقوده، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم. قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾؛ يعني بذلك: الغِشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧]. وكقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ

(١) قليلو الفَهم.

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال أُبَيّ بن كعب في قوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظُلَم: كلامه ظُلمة، وعمله ظُلمة، ومدخله ظُلمة، ومخرجه ظُلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات، إلى النار.

وقال الربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك أيضًا.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾؛ أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦].

وهذا في مقابلة ما قال في مَثَل المؤمنين: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾. فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورًا، وعن أيماننا نورًا، وعن شمائلنا نورًا، وأن يُعْظِم لنا نورًا». انتهى كلام ابن كثير بحذف يسير.

وقال ابن القيم بعد شرح الآيات[١]: «فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة: المنعم عليهم وهم أهل النور، والضالين وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة. والله أعلم.

فالمَثَل الأول من المَثَلَين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، فأولئك أصحاب العمل الباطل، وهؤلاء أصحاب العمل الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق، ولهذا مَثَّل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة، من فوقها سحاب مظلم ،وهكذا أمواج الشكوك والشُّبَه في قلوبهم المظلمة، التي قد تراكمت عليها سُحُب الغَي والهوى والباطل، فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين وليطابق بينهما وبين المَثَلَين يعرف عظمة القرآن وجلاله، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

---

(١) «أمثال القرآن» (٢/١٠-١٢).

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورًا، بل تركهم على الظُلمة التي خُلقوا فيها، فلم يخرجهم منها إلى النور، فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي «المسند»[1]: من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي مَثّل مَنْ يسمع ولا يعقل، قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ».

فالله سبحانه خلق الخلق في ظُلمة، فمن أراد هدايته جعل له نورًا وجوديًّا يُحْيِي به قلبَه وروحَه، كما يُحْيِي بدنه بالروح التي ينفخها فيه، فهي حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمَّى الله الوحي روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه، كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل:٢]. وقال: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر:١٥]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾ [الشورى:٥٢]. فجعل وحيه روحًا ونورًا، فمن لم يحيِه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورًا منه فهو في الظلمات ما له من نور».

وقال ابن سعدي: «﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ بربهم وكذبوا رسله ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾؛ أي: بقاع لا شجر فيه ولا نبت، ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسبان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾، فندم ندمًا شديدًا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تُرَى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالًا نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها،

(١) (٦٦٤٤)، بنحوه، وأخرجه الترمذي (٢٦٤٢) وغيره، وصححه الألباني. وسيأتي.

ويحسبها هو أيضًا أعمالًا نافعة لهواه، وهو أيضًا محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا، والحال أنه لم يذهب لا له ولا عليه بل وجد ﴿ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، لم يَخْفَ عليه من عمله نقير ولا قطمير، ولن يُعدم منه قليلًا ولا كثيرًا، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثَّلها الله بالسراب الذي بقيعة؛ أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال، وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ بعيد قعره، طويل مداه، ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، ظُلمة البحر اللُّجي، ثم فوقه ظُلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظُلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظُلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًّا، بحيث أن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها؟! كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظُلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظُلمة الكفر، وفوق ذلك، ظُلمة الجهل، وفوق ذلك ظُلمة الأعمال الصادرة عما ذُكِر، فبَقُوا في الظُلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغَي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطاها مولاها، ومنحها ربها.

يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار، كل منهما منطبق عليها، وعَدَّدَهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال لطائفة وفرقة، فالأول للمتبوعين، والثاني للتابعين، والله أعلم».

اسم النور

وذَكَر «النور» في أسماء الله عز وجل ابن خزيمة[١]، وشيخ الإسلام[٢]، وابن القيم ـ كما تقدم ـ:

وقال أيضًا[٣]: «والله سبحانه وتعالى سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ».

وقال[٤]: «ولما كان النور من أسمائه الحسنى وصفاته كان دينه نورًا، ورسوله نورًا، وكلامه نورًا، وداره نورًا يتلألأ، والنور يتوقد في قلوب عباده المؤمنين، ويجري على ألسنتهم، ويظهر على وجوههم».

وقال:

والنــور مــن أســمائه أيضًــا ومــن ... أوصـــافه ســـبحان ذي البرهـــان
قــال ابــن مســعودٍ كلامًــا قــد حــكا ... ه الداريْ عنـــه بـــلا نكـــرانِ
مــا عنــده ليــل يكــون ولا نهــا ... رٌ قلــتُ تحــت الفلــك يوجــدُ ذانِ
نــور الســموات العــلى مــن نــورهِ ... والأرضِ كيــف النجــومُ والقمــرانِ
مــن نــور وجــه الــرب جــل جــلالهُ ... وكـــذا حـــكاه الحـــافظ الطـــبراني
فبه اســتنار العــرش والكــرسي مــع ... ســـبعِ الطبـــاق وســـائر الأكـــوانِ
وكتابـــه نـــور كـــذلك شرعـــهُ ... نـــورٌ كـــذا المبعـــوث بالفرقـــانِ
وكــذلك الإيمــان في قلــب الفــتى ... نـــور على نـــور مـــع القـــرآن
وحجابــه نــور فلــو كشــف الحجــا ... بَ لأحـــرق الســـبحاتُ للأكـــوانِ

---

(١) «التوحيد» (٨٩/١).

(٢) «المستدرك على مجموع فتاوى» (٥٠/١).

(٣) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ١٠).

(٤) «شفاء العليل» (ص ١٠٥).

وإذا أتى للفصل يشرق نورهُ | في الأرض يوم قيامةِ الأبدانِ
وكذاك دارُ الرّبِّ جناتُ العلى | نورٌ تلألأ ليس ذا بُطْلانِ
والنور ذو نوعين مخلوقٌ ووصـ | ـفٌ ما هما والله متحدانِ
وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ | ـسوسٌ ومعقولٌ هما شيئانِ
احذر تزلَّ فتَحْتَ رجليك هُوّةٌ | كم قد هوى فيها على الأزمانِ
من عابد بالجهل زلت رجلهُ | فهوى إلى قعر الحضيض الداني
لاحت له أنوار آثار العبا | دة ظنها الأنوارَ للرحمنِ
فأتى بكل مصيبة وبليةٍ | ما شئت من شَطْح ومن هَذَيانِ
وكذا الحلوليُّ الذي هو خِدْنُهُ | من هاهنا حقًّا هما أَخَوَانِ
ويقابل الرجلين ذو التعطيل والـ | ـحُجُب الكثيفة ما هما سِيّانِ
ذا في كثافة طبعه وظلامهِ | وبظلمةِ التعطيل هذا الثاني
والنور محجوبٌ فلا هذا ولا | هذا له من ظلمةٍ يَرَيانِ

وقال ابن سعدي شارحًا(١): «بسط المصنف الكلام على هذا الاسم الكريم لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة متعلقاته ووقوع الاشتباه الكثير في ذلك، وحاصل ذلك أن من أسمائه جلّ جلاله ومن أوصافه «النور»، الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام، وذو البهاء والسبحات، الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها، فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان.

والنور نوعان: حسيٌّ كهذه العوالم التي لم يحصل لها نور إلا من نوره، ونور

(١) «الحق الواضح المبين» (ص ٩٣ - ٩٥).

معنوي يحصل في القلوب والأرواح بما جاء به محمد ﷺ من كتاب الله وسنة نبيّه، فعِلم الكتاب والسنة والعمل بهما ينير القلوب والأسماع والأبصار، ويكون نورًا للعبد في الدنيا والآخرة: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، لما ذكر أنه نور السموات والأرض، وسمّى الله كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ووحيه نورًا».

قال: «ثم إن المؤلف حذر من اغترار من اغتر من أهل التصوف، الذين لم يُفَرِّقوا بين نور الصفات وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنهم لما تألهوا وتعبدوا من غير فرقان وعلم كامل، ولاحت أنوار التعبد في قلوبهم، لأن العبادات لها أنوار في القلوب، فظنوا هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال.

وأما أهل العلم والإيمان والفرقان فإنهم يُفَرِّقون بين نور الذات والصفات، وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها، ولا يحلّ بمخلوق، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها».

وقال[1]: «فالنور وصفه العظيم، فأسماؤه حسنى، وصفاته أكمل الصفات، وأفعاله تعالى رحمة وحمد وحكمة، وهو نور السموات والأرض، وبنوره استنارت قلوب المؤمنين، وبنوره استنارت جنات النعيم، وحجابه نور لو كشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه[2].

والنور الذي هو وصفه من جملة نعوته العظيمة، وأما النور المخلوق فهو نوعان:

نور حِسِّي: كنور الشمس والقمر والكواكب وسائر المخلوقات المدرك

---

(١) «توضيح الكافية الشافية» (ص ٣٨٨-٣٨٩).

(٢) كما ثبت عن النبي ﷺ، وهو في «صحيح مسلم» (١٧٩) وغيره، انظر لفظه في آخر خاتمة الكتاب.

نورها بالأبصار.

والثاني: نور معنوي، وهو نور المعرفة والإيمان والطاعة، فإن لها نورًا في قلوب المؤمنين بحسب ما قام في قلوبهم من حقائق المعرفة، ومواجيد الإيمان، وحلاوة الطاعة، وسرور المحبة.

وهذا النور هو الذي يمنع صاحبه من المعاصي ويجذبه إلى الخير ويدعوه إلى كمال الإخلاص لله، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيَّ نُورًا، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا، وفوقي نورًا، وَتَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا، وَزِدْنِي نُورًا»(١).

وهذا النور الذي يعطيه اللهُ عبدَه أعظم منّة مِنْهُ عليه، وهو أصل الخير.

وهذا النور مهما قوي فإنه مخلوق، فإياك أن تَضعف بصيرتُك ويَقِلَّ تمييزُك وعلمك فتظن هذا النورَ نورَ العِيان ومشاهدة القلب لنور الذات المقدسة، وإنما هو نور المعرفة والإيمان.

ويُبتلَى بهذا بعض الصوفية الذين تَرِد عليهم الواردات القوية، فيقع منهم من الشَّطح والخَطَل ما ينافي العلم والإيمان.

كما أن كثيف الطبع جافي القلب قد تراكمت عليه الظلمات، وتوالت عليه الغفلات، فلم يكن له من هذا النور حظ ولا نصيب، بل ربما ازدرى مِن سفاهة عقله وقلة وَجْده هذه الأحوال وزهد فيها.

فمتى منَّ الله على العبد بمعرفة صحيحة متلقاة من الكتاب والسنة، وتفقه في أسماء الله وصفاته، وتعبد لله بها، واجتهد أن يحقق مقام الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، ولهج بذكر الله تعالى، استنار قلبه، وحصل له من لذة المعرفة ومواجيد الإيمان أعظم اللذات، وذلك فضل الله

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣)، وغيرهما، وراجع لفظه في خاتمة الكتاب.

يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم». اهـ.

هذا، وسورة النور هي أكثر سورة ذُكِر فيها النور، وتسمت بهذا الاسم الجميل وبهذا اللفظ المتكرر في آية النور، وفيها من كثرة ذكر الأحكام الشرعية الحكيمة، المشتملة على الأنوار العظيمة، والهداية والتعليم في أمور الدنيا والدين[1]، فضلًا عما احتوته من ذكر جملة كثيرة من أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا.

وابتدأت بذكر إقامة الحدود على الزناة، أصحاب أعظم وأشهر فاحشة موجبة لأشد العقوبات، وأعظم الظلمات، وبالمقابل ذَكرت العفة، من حفظ الفروج وغض الأبصار، الموجبة لأعظم الزكاة والطهارة والنور.

خالق الظلمات والنور

ومثال النور الحسي المخلوق ما ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح:١٥-١٦].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ:١٣].

وهذا واضح جَلِيّ.

ومثال ما يشمل النور الحسي والنور المعنوي قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام:١].

قال ابن سعدي: «وذلك شامل للحسي من ذلك: كالليل والنهار، والشمس

(١) وابتدأت بذكر إقامة الحدود على الزناة، أصحاب أعظم وأشهر فاحشة موجبة لأشد العقوبات وأعظم الظلمات، وبالمقابل ذَكرت العفة، من حفظ الفروج وغض الأبصار، الموجبة لأعظم الزكاة والطهارة والنور.

والقمر، والمعنوي: كظلمات الجهل والشك والشرك والمعصية والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة».

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «يقول الله تعالى مادحًا نفسه الكريمة، وحامدًا لها على خلقه السموات والأرض قرارًا لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ «الظلمات» ووحد لفظ «النور» لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]». اهـ.

قلت: وقد مَنّ الله عز وجل على عباده برحمته بهم بتعاقب الليل والنهار، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٣].

○○○○○

كلام الله نور

قال تعالى عن كتابه العظيم التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ [الأنعام:٩١].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم:٥].

وقال عن كتابه العظيم الإنجيل: ﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ [آل عمران:١٨٤].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ [فاطر:٢٥].

قال ابن جرير: «ويعني: بـ«الكتاب»: التوراة والإنجيل، وذلك أن اليهود

كذبت عيسى وما جاء به، وحرفت ما جاء به موسى عليه السلام، من صفة محمد ﷺ، وبدَّلت عهده إليهم فيه، وأن النصارى جحدت ما في الإنجيل من نعته، وغيرت ما أمرهم به في أمره. وأما قوله: ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾، فإنه يعني: الذي ينير فيُبيّن الحق لمن التبس عليه ويوضحه. وإنما هو من النور والإضاءة، يقال: قد أنار لك هذا الأمر، بمعنى: أضاء لك وتبين، فهو ينير إنارة، والشيء منير».

القرآن العظيم

وقال عز وجل عن أعظم كتبه المنزّل على أعظم رسله ﷺ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥].

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩][(١)].

---

(١) وسورة الحديد هي أكثر سورة ذُكِر فيها النور بعد سورة النور، وكأني بها تشير إلى استعمال الحديد وبأسه الشديد في الجهاد، ومنافعه الجمّة، وأن القتال في سبيل الله عز وجل هو أعظم طريق يسلكه المؤمنون لتحصيل النور!!

وقال سبحانه: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١].

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [التغابن:٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

تلاوة القرآن

واستمدادك النور من كتاب الله عز وجل يكون بمحبته وتعظيمه، وبتلاوته وسماعه، وبتدبره وتعلمه، وبتحكيمه في كل أمور الدين والدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر:١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «أُوْصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ». قلت: يا رسول الله، زدني. قال: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ»(١).

(١) بعض حديث، أخرجه ابن حبان (٣٦١) وغيره، وصححه الألباني.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا[(١)]».

قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمُها؟ فقال:

«بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[(٢)].

فانظر بالله إلى هذا السؤال ما أعظمه! وما أجله! سأل الله تعالى بكل أسمائه الحسنى، ما علم منها وما لم يعلم، وما علَّمَه اللهُ عبادَه وما أخفاه عنهم، أن يجعل القرآن ربيع قلبه؛ أي: حياته، ونور صدره الذي به انشراحه وانفساحه، وبه ذهاب كل ظلمة فيه، من هم وغم وغفلة وجهل وفساد، وسائر الآفات.

فبالإقبال على القرآن وتلاوته وتدبره ـ يا عبد الله ـ يحيا قلبك، ويستنير صدرك، ويذهب همك وغمك، ويحضر سرورك وفرحك.

فاجعل لك وردًا من كتابك ربك، وأقلّ من ذلك أو أكثر، فإنما هو النور لقلبك وروحك ووجهك وجوارحك، ولأهلك وذريتك، وبيتك ومجلسك، وسائر حاجاتك.

والتزمه ولا تتركه أبدًا، فإن نور القرآن يجلب لك الخير والبركة في وقتك وقولك وعملك، وإياك أن تنشتغل عنه بأعمالك مهما كانت، ولو كانت في

---

(١) أو: «فَرَحًا» بالمهملة، لاختلاف نسخ «المسند» التي بين يدي.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٠٤ و٤٣٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٧٢ - موارد)، والحاكم (٥٠٩/١)، وغيرهم. وهو في «الصحيحة» (رقم ١٩٩).

ظاهرها أعمالًا دينية، فضلًا عن الأعمال الدنيوية!

قال ابن القيم[1]: «وقوله: (أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري) يجمع أصلين: الحياة، والنور، فإن الربيع هو المطر الذي يحيي الأرض فينبت الربيع، فيسأل الله بعبوديته وتوحيده وأسمائه وصفاته، أن يجعل كتابه الذي جعله روحًا للعالمين ونورًا، حياةً لقلبه بمنزلة الماء الذي يحيي به الأرض، ونورًا له بمنزلة الشمس التي تستنير بها الأرض، والحياة والنور جماع الخير كله».

وذلك كما قال شيخ الإسلام[2]: «الربيع: هو المطر المنبت للربيع، فسأل الله أن يجعله ماءً يحيي به قلبه، كما يحيي الأرض بالربيع، ونورًا لصدره. والحياة والنور جماع الكمال، كما قال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]».

وعن بُرَيْدَةَ الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ بِهِ أُلْبِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَاجًا مِنْ نُورٍ، ضَوْؤُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيُكْسَى وَالِدَيْهِ حُلَّتَانِ لَا يَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَا كُسِينَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ»[3].

وعن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[4].

وكيف لا يكون كذلك، وليس في الدنيا شيء محسوس يصلنا بالله عز وجل، وأسمائه وصفاته، ووحيه ونوره، أعظم من هذا المصحف الذي فيه كلام

---

(١) «شفاء العليل» (ص ٢٧٧).

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١٨/٣١٠).

(٣) أخرجه الحاكم (١/٧٥٦) وغيره، رواه الحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم»! وهو في «صحيح الترغيب» (١٤٣٤).

(٤) أخرجه البخاري وغيره.

ربنا المجيد؟!

واحذر عبد الله أن تكون من القوم الذين شكاهم النبي ﷺ إلى ربه عز وجل، وذلك في قوله تبارك اسمه: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠].

أو في القوم المعرضين عن كتاب الله تعالى، المنشغلين عنه بشهوات الدنيا الزائلة، فإن فعلت فهو الهم والغم والضَنْك والظُلمة والعمى والوحشة، دون الراحة والطُمَأنينته والسعادة والنور، قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا[١] مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا»[٢].

قال المناوي[٣]: «(استذكروا القرآن)؛ أي: استحضروه في قلوبكم، وعلى ألسنتكم، واطلبوا من أنفسكم المذاكرة، والسين للمبالغة».

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»[٥].

---

(١) أي: تفلتًا، كما في رواية أبي موسى رضي الله عنه الآتية.

(٢) بعض حديث، متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) «فيض القدير» (٤٨٨/١).

(٤) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

قال الصنعاني[1]: «والإبل إذا انفلتت من عقالها فإنها لا تكاد تُلحق، ولعل النكتة في التمثيل وخصوصية الإبل الإشارة إلى أن كلام الله تعالى لعلو شأنه، وعظمة مكانه، وكثرة علومه، وتتابع أنواره، لا تسكن قلوب الرجال إلا بالشد عليه وقوة الإمساك بالتلاوة له، وإلا فإن عظمة شأنه تقتضي مع تلوث العباد بالمعاصي، وعدم عملهم بعلومه، أن لا يقر في قلوبهم ولا تكون صدورهم مساكنه، فكأنه ينفلت منها لولا عقاله بدوام التلاوة، فهذه والله أعلم هي نكتة الخصوصية في التمثيل».

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

والأحاديث في فضل وثواب تلاوة القرآن كثيرة مشهورة، فمن ذلك:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[3].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة[4]،

---

(١) «التنوير» (٥/٥٢)، بحذف يسير

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) وغيره، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) بعض حديث، أخرجه مسلم (٢٦٩٩) وغيره.

(٤) (الصفة)؛ أي: في موضع مظلل من المسجد الشريف كان فقراء المهاجرين يأوون إليه، وهم المُسَمَّون بأصحاب الصفة، وكانوا أضياف الإسلام. (يغدو)؛ أي: يذهب في الغُدْوة، وهي أول النهار. (بطحان): اسم موضع بقرب المدينة. (العقيق): واد بالمدينة. (كوماوين): الكوماء من الإبل: العظيمة السنام. «عبد الباقي».

فقال:

«أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ، [زَهْرَاوَيْنِ][1]، فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك. قال:

«أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[3].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ»[4].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[5].

---

(١) أي: ذواتي البياض الناصع الصافي المشرق.

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٣)، وأبو داود (١٤٥٦)، والزيادة له، وغيرهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (١٣٩٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٥) متفق عليه.

(الأترجة): قال في «الكوكب الوهاج»[1]: «هي ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحُسن اللون، يشبه البِطِّيخ».

وقال ابن أبي شيبة[2]: حدثنا ابن عُلَيّة، عن يونس قال: كان من خُلُق الأولين النظر في المصاحف.

وقال يحي بن معاذ: أشتهي من الدنيا شيئين: بيتًا خاليًا، ومصحفًا جيد الخط أقرأ فيه القرآن[3].

وقال الشاطبي في أول «لاميته»[4] الشهيرة:

وإنّ كتـــابَ اللهِ أوثـــقُ شـــافعٍ ... وأغــنى غَنَــاءٍ واهبًــا مُتَفَضِّــلَا
وخـــيرُ جلـــيسٍ لا يُمَـــلُّ حديثُـــهُ ... وتَــرْدَادُهُ يَـــزدادُ فيـــه تَجَمُّـــلَا
وحيــثُ الفــتى يَرْتــاعُ في ظُلُمَاتِــهِ ... مــن القــبر يَلْقَــاهُ سَــنًا مُــتَهَلِّلَا
هنالــك يَهْنِيــهِ مَقِــيلًا وروضــةً ... ومــن أجلــه في ذِرْوَةِ العِــزِّ يُجْــتُلَى
يُناشـــدُ في إرضـــائه لحبيبِـــهِ ... وأَجْــدِرْ بــه سُــؤْلًا إليــه مُوَصَّــلَا
فيــا أيهــا القــاري بــه مُتَمَسِّــكًا ... مُجِــلًّا له في كل حــالٍ مُــبَجِّلَا
هنيئًـــا مريئًـــا والداك عليهمـــا ... ملابـسُ أَنـوارٍ مـن التـاجِ والحُـلَا
فما ظـنكمْ بالنَّجْـلِ عنـد جزائـهِ ... أولئـك أهـلُ اللهِ والصـفوةُ المَـلَا
أُولُو البِرِّ والإحسانِ والصبرِ والتُّـقَى ... حُلَاهُمُ بهـا جـاء القُـرَانُ مُفَصَّـلَا
عليكَ بها ما عشـتَ فيهـا مُنَافِسًـا ... وَبِعْ نفسَكَ الدنيـا بأنفاسـها العُـلَا

---

(١) (١٠/١٣٤).

(٢) «المصنف» (١٥/٥٢٥، وفي مواضع أخر).

(٣) «التذكار» للقرطبي (ص ١٣٤).

(٤) المسماة: «حرز الأماني ووجه التهاني» في القراءات السبع، وهي المشهورة بالشاطبية، وأبياتها ألف ومئة وثلاثة وسبعون بيتًا.

فاقرأ القرآن في جميع أوقاتك، وابذل جهدك في ذلك، ولا تَدَعَنَّ يومًا يمر عليك أو ليلة دون قراءة أو سماع شيء من كتاب ربك، واقرأه في طريقك وذهابك وإيابك، واقرأه في مشيك وقيامك وجلوسك، وفي بيتك ومسجدك، وفي مجلسك وسوقك، اقرأ ولو سورة قصيرة، ولو ثلاث آيات، ولو آيتين، ولو آية!

إياك أن يفوتك يوم أو ليلة من النظر في كتاب الله عز وجل، فتفْقِد النور والبركة في كل أمور حياتك، بحسب ما تترك من ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما يمنع أحدكم إذا رجع من سوقه، أو من حاجته، فاتكأ على فراشه، أن يقرأ ثلاث آيات من القرآن!![1].

وانظر أين أنت وأين محلك من قرّاء القرآن!!

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة. قال: فإما ذُكِرْتُ للنبي ﷺ، وإما أَرسلَ إلي فأَتيتُه، فقال لي:

«أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟» فقلت: بلى، يا نبي الله، ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير. الحديث. وفيه:

«وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ». قال قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ». قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ». قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا». الحديث[2].

واعلم أن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، ومَنْ أحق منهم بهذه المنزلة وهم أهل كلامه وكتابه العظيم ونوره الهادي؟! فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) «سنن الدارمي» (٣٣٣٦).

رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ». قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»[١].

وأعظم الوسائل في تحصيل أنوار التلاوة إذا كانت في الصلاة، فيجتمع للقارئ نور القرآن في داخل الصلاة التي هي نور، وأعظم الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل[٢]، فهناك تجتمع الأنوار الكثيرة المتنوعة، فالجسد في ظلمة الليل البهيم، والروح في النور العظيم!

والقرآن كله نور كما تقدم، ومن سور القرآن التي خصت بذكر النور:

سورة الفاتحة: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا من فوقه، فرفع رأسه فقال:

«هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ» فقال: «هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[٣].

قال ابن القيم[٤]: «فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن، لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) كما سيأتي.

(٣) أخرجه مسلم (٨٠٦) وغيره.

(٤) «زاد المعاد» (٣١٨/٤-٣١٩). ولكلامه بقية.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك، رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»[1].

ومن ساعده التوفيق، وأُعين بنور البصيرة، حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدَر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما، ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة والنعمة الكاملة منوطة بها، موقوفة على التحقق بها، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابه.

وهذا أمر يحتاج استحداث فطرة أخرى، وعقل آخر، وإيمان آخر، وتالله لا تجد مقالة فاسدة، ولا بدعة باطلة، إلا وفاتحة الكتاب متضمنة لردها وإبطالها بأقرب الطرق وأصحها وأوضحها، ولا تجد بابًا من أبواب المعارف الإلهية، وأعمال القلوب، وأدويتها من عللها وأسقامها، إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدلالة عليه، ولا منزلًا من منازل السائرين إلى رب العالمين إلا وبدايته ونهايته فيها». اهـ

وسورتا البقرة وآل عمران: فعن النَّوَّاس بن سَمْعَانَ الكِلَابِيّ رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسِيتهن بعد، قال:

«كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ

(١) بعض حديث، متفق عليه.

طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[1].

قال النووي: «(بينهما شَرْق)، هو بفتح الراء وإسكانها، أي: ضياء ونور. وممن حكى فتح الراء وإسكانها القاضي وآخرون، والأشهر في الرواية واللغة الإسكان». اهـ.

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ[2]، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة[3].

وسورة الكهف: فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ». الحديث[4].

وانظر عامة ما ورد في فضائل سور وآيات مخصوصة في كتابي «معاتبة النفس»، تحت عنوان «فضل سور وآيات».

وأعظم آي القرآن هي آية الكرسي، فعن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]. قال: فضرب في صدري وقال:

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٥) وغيره.

(٢) الغياية: كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة ونحوها. «قاموس».

(٣) أخرجه مسلم (٨٠٤) وغيره.

(٤) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٥٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٦٥١).

«وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»(١).

وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟». قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال:

«﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ». فحَشَد مَنْ حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقرأ: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ»، ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(٣).

تدبر القرآن

واجعل همك في التلاوة فهم ما تقرؤه وتدبره، فإنه أنفع شيء لك في زكاتك وصلاحك وهدايتك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

قال ابن سعدي: «﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾؛ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٨١١) وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (٨١٢) وغيره.

أجلَّ كتاب طرق العالم.

﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره».

وقال الشنقيطي: «أي: يتفهموها ويتعقلوها ويُمْعِنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى».

قال ابن كثير[1]: «قال الحسن البصري: والله ما تدبُّرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، [فما أسقطت منه حرفًا. وقد والله أسقطه كله]، ما يُرى له القرآن في خُلُق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم».

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

قال ابن القيم[2]: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طُرُقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[3] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطّد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم

(١) «تفسيره» (٥٤/٧). والزيادة من «الزهد» لابن المبارك (رقم ٧٩٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٤٥١/١-٤٥٢).

(٣) أي: تضع.

وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه». اهـ.

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الآية، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا، يهدي للتي هي أقوم؛ أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، فـ «التي» نعت لموصوف محذوف، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِل يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أجملَ اللهُ جل وعلا فيها جميعَ ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة». اهـ.

وقال ابن رجب(١): «ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

قال خباب بن الأَرَتِّ لرجل: تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه.

لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم، وغاية مطلوبهم.

قال عثمان: لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم». اهـ.

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٤٢)

الذكر نور

قال الله عز وجل في عَقِب آية النور: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

وتقدم قبل قليل: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ)»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)] وهو يَعُدّ فوائد الذكر: أن الذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢]. فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته، والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته».

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[(٣)].

وقال الله عز وجل: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٢].

قال خالد الرَّبَعي[(٤)]: «﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾، قف عندها ولا تعجل، فلو استقر يقينها في قلبك ما جفت شفتاك».

---

(١) بعض حديث، أخرجه ابن حبان (٣٦١) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٥٠).

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٤) انظر «الدر المنثور» (٦٥/٢).

وقال ابن القيم[1]: «ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» الحديث[2].

ووصف سبحانه أولي الألباب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران:١٩١]. الآية.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»[3].

قال شيخ الاسلام[4] مجيبًا من سأله عن أفضل الأعمال بعد الفرائض: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شَغل العبدُ به نفسَه في الجملة» ـ إلى أن قال: ـ «والدلائل القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة».

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٤٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٦٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ». قال: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا». قال: «فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ». قال: «فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟» قال: «فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ، مَا رَأَوْكَ؟» قال: «فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا».

قال: «يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟» قال: «[قَالُوا:] يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ». قال: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا». قال: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً.

قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قال: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ». قال: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا». قال: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً».

قال: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ». قال: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حَلْقَةٍ فِي المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال آللهِ ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكُمْ تُهْمَةً لكم،

---

(١) متفق عليه. والسياق للبخاري، والزيادة لمسلم.

وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقَلَّ عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حَلْقَةٍ من أصحابه، فقال:

«مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونَحْمَده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا. قال: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال:

«أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ»[1].

قال النووي[2]: «قوله ﷺ: (إن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة)؛ معناه: يُظهر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم، ويثني عليكم عندهم، وأصل البهاء الحسن والجمال، وفلان يباهي بماله وأهله؛ أي: يفخر ويتجمل بهم على غيرهم، ويُظهر حسنهم».

وقال ابن القيم[3]: «فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده، ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال».

وعن الأَغَرِّ أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال:

«لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[4].

قال الشوكاني[5]: «(قوله: حفتهم الملائكة)؛ أي: أحدقت بهم واستدارت

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠١) وغيره.

(٢) «شرح مسلم» (٢٣/١٧).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) وغيره.

(٥) «تحفة الذاكرين» (ص ١٢).

عليهم. ومعنى (غشيتهم الرحمة): سترتهم، أَخْذًا من التغشي بالثوب. و(السكينة): هي الطمأنينة والوقار».

قال: «وفي الحديث ترغيب عظيم للاجتماع على الذكر، فإن هذه الأربع الخصائص في كل واحدة منها على انفرادها ما يثير رغبة الراغبين، ويقوي عزم الصالحين على ذكر رب العالمين».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[١].

قال ابن القيم[٢]: «وهذه المعية معية خاصة، غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق».

قال: «والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جُمْدَانُ، فقال:

«سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ[٣]». قالوا: وما المُفَرِّدُونَ؟ يا رسول الله؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[٤].

وحذر ربنا تبارك وتعالى من الغفلة تحذيرًا شديدًا، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٨٣).

(٣) أي: المنفردون.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) وغيره.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩].

قال ابن القيم[١]: «فلما نسوا ذكره والثناء عليه وتحميده وتمجيده نسيهم من رحمته، وأنساهم مصالح نفوسهم، فلم يعرفوها ولم يطلبوها، بل تركوها مهملة معطلة مع نقصها وعيوبها».

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:٣٦].

قوله تعالى: (يعش)، قال ابن كثير: «أي: يتعامى، ويتغافل، ويعرض».

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨].

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا» الحديث. وفيه:

«وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»[٢].

قال ابن القيم[٣]: «وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، و(الخناس): الذي إذا ذكَر العبدُ اللّهَ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب، وألقى إليه الوساوس، التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبدُ نفسَه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل».

---

(١) «الصواعق» (١٤٨١/٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣ و٢٨٦٤)، وصححه الألباني.

(٣) «بدائع الفوائد» (٢٧٠/٢).

وقال[1]: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غَفَل وثب عليه وافترسه، وإذا ذَكَر اللهَ تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصع[2] وكالذباب، ولهذا سُمِّي (الوسواس الخناس)؛ أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذُكِر الله تعالى خَنَس؛ أي: كَفّ وانقبض». اهـ.

وهذا باب واسع جدًّا، وفضائل الذكر لا تكاد تستوعب، وأنصح في هذا الباب بكتاب «الوابل الصيب» لابن القيم، وأما في معرفة الأذكار والتوسع فيها، ومعرفة فضائل الأذكار المخصوصة، مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وغيرها، فأجل كتاب في ذلك «كتاب النووي»، ومن أراد الاختصار فـ«الكلم الطيب» لشيخ الإسلام.

وأما من أراد أن يقف على أهم الأذكار والأدعية، وأعظمها، وجوامعها، والأذكار المضاعفة، والأدعية المستجابة، والتوسع في هذا، فدونه كتابي «الأذكار المضاعفة»!

ooooo

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٤٦).

(٢) الوصع: بفتح الصاد وسكونها: طير أصغر من العصفور.

النبي ﷺ نور

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

قال ابن سعدي: «هذه الأشياء، التي وصف الله بها رسوله محمدًا ﷺ، هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿شَٰهِدٗا﴾؛ أي: شاهدًا على أمته بما عملوه، من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]. ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء:٤١]، فهو ﷺ شاهد عَدْل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، وهذا يستلزم ذكر المبشَّر والمنذَر، وما يبشَّر به وينذَر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشَّر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوي وديني رُتِّب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم، وذلك كله يستلزم ذِكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمنذَر هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النَّذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الوبيل، والعذاب الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه (داعيًا إلى الله)؛ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما

يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه (سراجًا منيرًا)، وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة لا نور يُهتدى به في ظلماتها، ولا علم يُستدل به في جهالاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلّم به من الجهالات، وهدى به ضُلّالًا إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة». اهـ.

قلت: فطريق تحصيل النور من النبي الكريم، السراج المنير، يكون بالإيمان به وبطاعته واتباعه والاقتداء به، وترك كل ما يخالف هديه ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤].

وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

قال ابن القيم[١]: «فأهل الأرض كلهم في ظلمات الجهل والغيّ إلا من أشرق

(١) «هداية الحيارى» (٢/٥٩١-٥٩٢).

عليه نور النبوة، كما في «المسند»[1] وغيره، من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ».

ولذلك بعث الله رسله ليُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور، ومن لم يجبهم بقي في الضيق والظُلْمة التي خلق فيها، وهي ظُلْمة الطبع، وظُلْمة الجهل، وظُلْمة الهوى، وظُلْمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها.

فهذه كلها ظلمات، خُلِق فيها العبد، فبعث الله رسله لإخراجه منها إلى نور العلم والمعرفة والإيمان والهدى الذي لا سعادة للنفس بدونه البتة، فمن أخطأه هذا النور أخطأه حظه وكماله وسعادته، وصار يتقلب في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، فمدخله ظُلْمة، ومخرجه ظُلْمة، وقوله ظُلْمة، وعمله ظُلْمة، وقصده ظُلْمة، وهو متخبط في ظلمات طبعه وهواه وجهله، ووجهه مظلم، وقلبه مظلم، لأنه مبقى على الظُلْمة الأصلية، ولا يناسبه من الأقوال والأعمال والإرادات والعقائد إلا ظلماتها، فلو أشرق له شيء من نور النبوة لكان بمنزلة إشراق الشمس على بصائر الخفاش.

بصائرُ غشّاها النهار بضوئهِ ... ولاءمها قِطْعٌ من الليل مظلمُ

يكاد نور النبوة يلمع تلك الأبصار، ويخطفها لشدته وضعفها، فتهرب إلى الظلمات لموافقتها لها وملاءمتها إياها.

والمؤمن عمله نور، وقوله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وقصده نور، فهو يتقلب في النور في جميع أحواله».

---

(١) (٦٦٤٤)، بنحوه، وأخرجه الترمذي (٢٦٤٢) وغيره، وصححه الألباني.

وقال[1]: «ليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرًا وباطنًا، وصدّقته خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعًا، وفنِيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبته غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تَتَعَنَّ، وارجع من حيث شئت فالتمس نورًا، فلست على شيء.

وتأمل قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الشأن في أن الله يحبكم لا في أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ». اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

قال المُعَلِّمي[2]: «فعلى المؤمن أن يتأدب مع الأحاديث الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما لو كان بحضرته صلى الله عليه وآله وسلم، فانظر يا مسكين كيف حالك في هذا الواجب؟!». اهـ.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[3].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٣٣).

(٢) «آثار المعلمي» (٤/٩٢).

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

قال النووي[1]: «قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير مُعْتَدٍّ به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات».

قال: «وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به».

وقال المُعَلِّمِي في تقريظ كتاب «فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد»[2]: «قد أكثر العارفون بالإسلام المخلصون له من تقرير أن كل ما وقع فيه المسلمون من الضعف والخَوَر والتخاذل، وغير ذلك من وجوه الانحطاط، إنما كان لبعدهم عن حقيقة الإسلام، وأرى أن ذلك يرجع إلى أمور:

الأول: التباس ما ليس من الدين بما هو منه.

الثاني: ضعف اليقين بما هو من الدين.

الثالث: عدم العمل بأحكام الدين.

وأرى أن معرفة الآداب النبوية الصحيحة، في العبادات والمعاملات، والإقامة والسفر، والمعاشرة والوحدة، والحركة والسكون، واليقظة والنوم، والأكل والشرب، والكلام والصمت، وغير ذلك مما يعرض للإنسان في حياته، مع تحري العمل بها كما يتيسر، هو الدواء الوحيد لتلك الأمراض، فإن كثيرًا من تلك الآداب سهلٌ على النفس، فإذا عمل الإنسان بما يسهل عليه منها، تاركًا لما يخالفها، لم يلبث إن شاء الله تعالى أن يرغب في الازدياد، فعسى أن لا تمضي عليه مدة إلا وقد أصبح قدوة لغيره في ذلك.

وبالاهتداء بذلك الهَدي القويم، والتخلق بذلك الخُلُق العظيم ـ ولو إلى

---

(١) «شرح مسلم» (١٢/١٦).

(٢) (١/٨-٩).

حدٍّ ما ـ يستنير القلب، وينشرح الصدر، وتطمئن النفس، فيرسخ اليقين، ويصلح العمل، وإذا كثر السالكون في هذا السبيل لم تلبث تلك الأمراض أن تزول إن شاء الله».

قال: «ومن أبسط مجموعات كتب السنة في الأدب النبوي كتاب «الأدب المفرد» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، والإمام البخاري كالشمس في رابعة النهار شهرة، وإلى مؤلفاته المنتهى في الجودة والصحة، وكتابه هذا ـ أعني «الأدب المفرد» ـ هو بعد كتابه «الجامع الصحيح» أولى كتبه بأن يَعتني به من يريد اتباع السنة، فإنه جمع فأوعى، مع التحري والتوقي والتنبيه على الدقائق».

○○○○○

الفطرة نور

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ»(١).

وقال سبحانه فيما يرويه عنه نبيه ﷺ: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا». الحديث(٢).

قال المباركفوري(٣): «قوله: (خَلْقَهُ)؛ أي الثقلين من الجن والإنس أو الإنس فقط، لا الملائكة فإنهم ما خُلقوا إلا من نور. (في ظلمة)؛ أي كائنين في ظلمة النفس الأمارة بالسوء، المجبولة بالشهوات المردية، والأهواء المضلة(٤)، (فألقى)؛ أي: فرَشّ، كما في رواية، (من نوره)؛ أي نوره الذي خلقه الله تعالى، فمِن زائدة في الإثبات أو بيانية؛ أي: شيئًا هو نوره، فيكون «من نوره» صفة محذوف، أو تبعيضية؛ أي: بعض نوره، وإضافة النور إلى الله تعالى(٥) إضافة إبداع واختراع على سبيل التكريم، كما في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩، وص:٧٢]، (فمن أصابه من

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم وغيره.

(٣) «المرعاة» (١/١٩٠-١٩١).

(٤) أو أن المقصود بالظُّلمة: ظُلمة بداية الخلق، فكانوا في الظلام الحسي الذي هو ضد النور الحسي، أو المراد كلاهما، أي: الظلام الحسي، والظلام المعنوي المذكور أعلاه، لذا قوبل بنور الهداية.

(٥) في هذا الموضع. قال شيخ الإسلام: «المضاف إذا كان معنى لا يقوم ينفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمًا به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عينًا قائمة بنفسها كعيسى وجبريل وأرواح بني آدم، امتنع أن تكون صفة لله تعالى، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره». «درء التعارض» (٧/٢٦٥).

ذلك النور)؛ أي: شيء من ذلك النور أو بعض ذلك النور. قيل: المراد بالنور الملقى عليهم نور الإيمان والطاعة والإحسان والمعرفة. وقيل: المراد به ما نصب لهم من الشواهد والحجيج، وما أنزل إليهم من الآيات والنُّذُر، إذ لولا ذلك لبَقُوا في ظلمات الضلالة والجهالة، والمراد بإصابة النور الاعتبار بالحجج والانتفاع بالشواهد، والاستدلال بالآيات على ذاته تعالى وصفاته وعلى دين الإسلام بتوفيق الله، فمن شاء الله بهدايته فشاهد حججه واعتبر بآياته واستدل بشواهده بالنظر الصحيح، فهو الذي أصابه ذلك النور فخلص من تلك الظلمة واهتدى، ومن لم يشأ هدايته فعمي عن آياته، فهو الذي حرم من ذلك النور وبقي في ظلمات الطبيعة متحيرًا وارتدى، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا﴾ [الأنعام:١٢٢]. وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢]. فعُلم أن الهداية والضلالة بمشيئة الله وتقديره في الأزل.

قال في اللمعات: وبالجملة في الحديث دلالة على أن الإنسان خلق على حالة لا ينفك عن الظلمة إلا من أصابه النور الملقى عليه، لكن يُتوهم الإشكال في تطبيقه بحديث الفطرة، الذي يدل على أن المولود عند الولادة يكون على نور الفطرة! ولا إشكال، لأن حديث الفطرة إنما يدل على كون الإنسان متهيئًا متمكنًا من إصابة الهدى، إن تفكر بالنظر الصحيح، وتأمل في الآيات والشواهد، ومع ذلك خُلِق في ظلمات النفس والطبيعة، وهذا الحديث إنما يدل على أن إصابة الهدى إنما هو مشيئة الله وتوفيقه وإلقاء نور الهداية في قلبه، وليس مستقلًا مستبدًّا بإصابة الهدى، فمن شاء وفقه للنظر الصحيح وألقى نور الهداية كما هو مقتضى الفطرة والروحانية، ومن لم يشأ لم يوفقه وأوقعه في ظلمة الضلال والغواية، كما هو مقتضى النفس والطبيعة الجسمانية.

وبالجملة هذا الحديث تنبيه على سابقة التقدير وعلم الله ومشيئته تعالى،

والفطرة غير سابقة التقدير، فلا تنافي بين الحديثين. انتهى.

(ومن أخطأه)؛ أي: ذلك النور؛ يعني: جاوزه ولم يصل إليه، (ضل)؛ أي خرج عن طريق الحق. (فلذلك)؛ أي: فلأجل عدم تغير ما جرى في الأزل تقديره من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، (أقول: جف القلم)؛ أي: فرغت الكتابة، إشارة إلى أن الذي كُتِب وقُدِّر لا يتغير حكمه، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة، (على علم الله)، قال القاري: أي على ما عَلِم الله وحكم به في الأزل، لا يتغير ولا يتبدل، وجفاف القلم عبارة عنه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا[1] مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ[2]، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[3].

والمقصود بالفطرة دين الله عز وجل، الإسلام، كما قال سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

---

(١) (الوبيص): البريق واللمعان. وفي ذكر (الوبيص) تنبيه على الفطرة السليمة الأصلية «طِيبي».

(٢) هذا يُذكِّر بقول النبي ﷺ في نبي الله داود عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ». أخرجه مسلم وغيره.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) وغيره، وصححه الألباني.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ * فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٥-١٣٨].

فصبغة الله: هي دينه الذي صبغ خلقه به، وفطرهم عليه، وهو الإسلام والإيمان بالله وتوحيده، دون الكفر به، ودون الشرك به، ودون ما عليه اليهود والنصارى، بل ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي وحّد الله تعالى وحنف؛ أي: مالَ، عن كل دين سوى الإسلام، وتبرأ من الشرك والمشركين، حتى صار عَلَمًا على الملة، ﷺ.

وعن عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى:

«أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ»(٢).

○○○○○

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٥٣٦٣ ــ ط الرسالة)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٨٩).

(٢) بعض حديث، متفق عليه.

الإسلام نور

قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

وقال عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

فللمسلمين المؤمنين شرح الصدور والنور ورقة القلوب وطهارتها، ولغيرهم ضيق الصدور وظلمتها وحرَجها وقسوة القلوب ورجسها.

قال ابن القيم وهو يَعُدّ أسباب شرح الصدر(١): «ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب، فإذا فُقِد هذا النور من قلب العبد ضاق وحَرِج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

وقد روى الترمذي في «جامعه»(٢): عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح». قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله». فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر وهذه تضيقه». اهـ.

وقال(٣): «فأي نعيم أطيب من شرح الصدر، وأي عذاب أمَرّ من ضيق الصدر؟!».

فعجل أيها الإنسان واقتبس من نور الإسلام، قبل أن يحال بينك وبينه،

---

(١) «زاد المعاد» (٢/٢٣).

(٢) لم أجده فيه! وهو في «السلسلة الضعيفة» برقم (٩٦٥).

(٣) «الداء والدواء» (ص ٤٥٩ – طبعة بكر أبو زيد). وانظر «إغاثة اللهفان» (١/٢٣).

وكن من أهله قبل أن ينتشر ويظهر، فيفوتك شرف السبق إلى اعتناقه.

ولا تغرَّنَّك قوة الباطل وانتشاره وانتصاره، وتمكنه في الأرض، ولا تهولَنَّك سطوته وعدته وكثرة أتباعه، ولا تخدعنك اجتهاداتهم وأساليبهم في محاربة الإسلام، ومحاولاتهم في إطفاء نوره، فما هي إلا كمن قام في الظهيرة ينفخ في الشمس ليطفئها.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٤-٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٢١-٢٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٨-٩].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أن ذلك تامًّا! قال:

«إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ(٢)، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ(٣)، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ(٤)، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال: مَنْ بَيْنَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٧) وغيره.

(٢) يريد بالأحمر والأبيض خزائن كسرى وقيصر، وذلك لأن الغالب على نقود ممالك كسرى الدنانير، والغالب على نقود ممالك قيصر الدراهم. «تُورِبِشْتي».

(٣) السَّنة: القحط والجدب، وهي من الأسماء الغالبة. «طِيبي».

(٤) أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار: وسطها ومعظمها، أراد عدوًّا يستأصلهم ويهلكهم جميعهم. «طِيبي».

أَقْطَارِهَا)، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[١].

وعن تميمٍ الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»[٢].

وعن أبي قَبيل، قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي، وسئل: أي المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حَلَقٌ، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا». يعني: قسطنطينية[٣].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ»[٤].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»[٥].

فمهما كثر المخالفون للإسلام، والكافرون به، والمحاربون له، فإنه ولا بد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) وغيره.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٤٥) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٤)

(٤) أخرجه مسلم (١٥٦ و١٩٢٣) وغيره.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٢٤) وغيره.

هو العزيز وهو المنتصر وهو الظاهر، رغم أنوف أعدائه، وعدًا من الله عز وجل، لا يُخْلَف ولا يتبدل.

وعن أبي زُرْعَةَ قال: كتب إليّ إسحاق بن راهَوَيْهِ: لا يهولنك الباطل، فإن للباطل جولة ثم يتلاشى(١).

وعن ابن أبي أسامة قال: حُكي لنا أن أحمد قيل له أيام المحنة: يا أبا عبد الله، أوَلَا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟!

قال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق(٢).

وقال شيخ الإسلام(٣): «ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه، فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق».

وقال(٤): «ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين».

وقال(٥): «والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أُدخل كيرَ الامتحان، فإنها تميز جيّده من رديئه، فالحق كالذهب الخالص، كلما امتُحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش المضيء، إذا امتُحن ظهر فساده.

فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عُوده المائل، أقام الله

---

(١) مقدمة «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٣٤٢/١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٣٨/١١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥٧/٢٨).

(٤) «الجواب الصحيح» (٨٥/١).

(٥) «الجواب الصحيح» (٨٨/١-٩٠).

تبارك وتعالى مَنْ يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتبين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق(١)، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر والضلال، والجهل والمحال، ما يظهر به لعموم الرجال، أن أهله من أضل الضُّلال، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد، ويتنبه بذلك من سِنة الرقاد، من كان لا يميز الغَي من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين». اهـ.

الثبات على الإسلام

وأنت أيها المسلم العزيز تمسك بإسلامك، فإنك على الحق، وعلى الصراط المستقيم، وعلى المنهج القويم، وإنك في النور والهداية والضياء، وإياك أن تضعف أو تتراجع، فإنما هو الظلام والغواية والشقاء.

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وهذا أمر بتقوى الله عز وجل بقدر الطاقة، والثبات على الإسلام مدة الحياة، لا ينقطع العبد عنه أبدًا، بحيث لو أتاه الموت في أي لحظة كان كذلك.

وبهذه الآية صَدّر النبي ﷺ خطبة الحاجة.

وبالثبات على الإسلام والدوام عليه وصّى خليلُ الله وكذلك نبيُّه يعقوب عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ

(١) أي: هالك حُمْقًا.

﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢-١٣٣].

وبه دعا يوسفُ الصدّيق عليه الصلاة والسلام لما تم له الأمر ومكن الله له في الأرض، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣].

ولمعرفة أسباب الثبات على الإسلام انظر كتابي «الثبات على الدين».

الشيب نور

عن كعب بن مُرّة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

قوله ﷺ: (من شاب شيبة في الإسلام)؛ أي: وهو في الإسلام، والمقصود أنه طال عمره في الدين والطاعة، مستمرًّا عليها، قائمًا بالإسلام، ثابتًا عليه.

وقوله ﷺ: (كانت له نورًا يوم القيامة)، قال المناوي: «أي: يصير الشيب نفسه نورًا يهتدي به صاحبه، ويسعى بين يديه في ظلمات الحشر إلى أن يدخله الجنة».

وعن فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَانَتْ نُورًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». ، فقال رجل عند ذلك: فإن رجالًا ينتفون الشيب. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَاءَ فَلْيَنْتِفْ نُورَهُ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٢) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٧١).

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

قال النووي[2]: «يكره نتف الشيب، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «لَا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ، فَإِنَّهُ نُورُ المُسْلِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ». حديث حسن، رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم بأسانيد حسنة. قال الترمذي: حديث حسن. هكذا قال أصحابنا: يكره، صرح به الغزالي والبغوي وآخرون. ولو قيل: يَحرم، للنهي الصريح الصحيح لم يَبْعُدْ، ولا فرق بين نتفه من اللحية والرأس».

الإسلام هو دين الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٩-٢٠].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾: إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى خُتِموا بمحمد ﷺ، الذي سَدّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته محمدًا ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبَّل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٠٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «المجموع» (١/٢٩٢-٢٩٣).

ﭐلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبَل عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾».

الدين واحد والشرائع مختلفة

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٤].

إلى أن قال: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦].

إلى أن قال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ * وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ * أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٤٨-٥٠].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها الله على موسى كليمه عليه السلام ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، شرع تعالى في ذكر القرآن العظيم، الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقًا عند

حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدّقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۩ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨]؛ أي: إنْ كان ما وعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدمين، من مجيء محمد عليه السلام، ﴿لَمَفۡعُولٗا﴾؛ أي: لكائنًا لا محالة ولا بد.

وقوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾؛ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس، أي: مؤتمَنًا عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله.

وروي عن عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسدي، وابن زيد، نحو ذلك.

وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل.

وعن الوالبي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا﴾؛ أي: شهيدًا. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا﴾؛ أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمَها، أشملَها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

فأما ما حكاه ابن أبي حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وابن أبي نجيح عن مجاهد، أنهم قالوا في قوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾؛ يعني: محمدًا ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضًا نظر. وبالجملة فالصحيح الأول، قال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ، وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدق»، فلا يكون إلا من صفة ما كان «المصدق» صفة له. قال: ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مصدقًا لما بين يديه من الكتاب مهيمنًا عليه». يعني: من غير عطف.

وقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فاحكم يا محمد بين الناس، عربهم وعجمهم، أمِّيِّهم وكتابيِّهم، {﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك مِن حكم مَن كان قبلك من الأنبياء، ولم ينسخه في شرعك. هكذا وجهه ابن جرير بمعناه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيرًا، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾، فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

وقوله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو

سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾، قال: سبيلًا.

وحدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾، قال: وسنة. وكذا روى العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، سبيلًا وسنة.

وكذا روي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، والضحاك، والسدي، وأبي إسحاق السبيعي، أنهم قالوا في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أي: سبيلًا وسنة.

وعن ابن عباس ومجاهد أيضًا وعطاء الخراساني عكسه: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أي: سنة وسبيلًا، والأول أنسب، فإن الشرعة وهي الشريعة أيضًا، هي ما يُبتدأ فيه إلى الشيء ومنه يقال: «شرع في كذا»؛ أي: ابتدأ فيه. وكذا الشريعة وهي ما يشرع منها إلى الماء. أما «المنهاج»: فهو الطريق الواضح السهل، والسنن: الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم.

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في «صحيح البخاري»[1]، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد»؛ يعني: بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. الآية. وأما الشرائع فمختلفة

(١) رقم (٣٤٤٣)، ولفظه: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ».

في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفًا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، يقول: سبيلًا وسنة، والسنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يُحِل الله فيها ما يشاء، ويُحرِّم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل.

وقيل: المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه: {﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا﴾ القرآن ﴿مِنكُمْ﴾ أيتها الأمة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أي: هو لكم كلكم، تقتدون به. وحذف الضمير المنصوب في قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾؛ أي: جعلناه؛ يعني: القرآن، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ أي: سبيلًا إلى المقاصد الصحيحة، وسنة؛ أي: طريقًا ومسلكًا واضحًا بينًا.

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، فلو كان هذا خطابًا لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدًا ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما

فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله.

وقال عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾؛ يعني: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، وهي طاعة الله واتباع شرعه، الذي جعله ناسخًا لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾؛ أي: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾؛ أي: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة.

وقال الضحاك: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾؛ يعني: أمة محمد ﷺ، والأظهر الأول.». انتهى كلام ابن كثير.

وقال الله عز وجل حاكيًا عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

وقال سبحانه عن خليله إبراهيم وبنيه عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٢٧-١٣٢].

وقال عن كليمه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤].

وقال عن مسيح الهدى عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢].

وقال سبحانه حاكيًا عن ملكة سبأ تصف كتاب نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

وقال سبحانه بعد ذلك حاكيًا عنها: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤].

وقال سبحانه لعباده المؤمنين: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وقل تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٨].

فدين الله تعالى هو الإسلام، وهو الدين الذي يجمع الأنبياء جميعًا، لا ما ينادون به في هذا الأيام زورًا وبهتانًا، مما سمَّوْه بالدين الإبراهيمي! ويقصدون به أن يجمعوا اليهود والنصارى والمسلمين على دين واحد هو دين يُرْجِعون أصله وجذره وينسبونه إلى إبراهيم عليه السلام، فيصير المسلمون مع اليهود والنصارى إخوة على دين واحد، لا عداء بينهم ولا قتال ولا شحناء ولا تشاجر، والحقيقة أنهم فقط إنما يريدون التزام المسلمين بهذا دونهم!

وانظر إلى عظيم افترائهم على الله تعالى وعلى رسله وأنبيائه، كيف عمدوا إلى اسم الخليل، سيد الحنفاء، الذي هو الأشهر، بعد نبينا ﷺ، بالبراءة من الشرك والمشركين، ومن كل دين سوى الإسلام، دين رب العالمين!!

قال الله تبارك اسمه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة:١١٤].

والطامة الكبرى أن ينطلي ما زعموه على بعض المسلمين، وما هو إلا الكفر بالله ورسله، والردة عن الدين الحق، الذي أمر الله به عباده، وارتضاه لهم، ولا يقبل منهم سواه، ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

هذا، ومن الوسائل التي اتخذتها الدول المحسوبة على الإسلام، لتسيير مهمتهم، وتحقيق أهدافهم، وتمرير مخططاتهم، لنصر هذا الدين المزعوم (الذي خططت له أمريكا، وتبنت دعمه هي وإسرائيل، ومن والاهم من أبناء المنطقة!): التمكين للصوفية والأشعرية في المنطقة، وإقصاء السلفية! وأهل السنة والجماعة، إذ أن الفرقتين الأُوليين لا علاقة لهم بولاء ولا براء، إلا من رحم ربي! وبينهما قواسم مشتركة يعرفها كثير من الناس، بل عند بعض فرق الصوفية قواسم مشتركة مع اليهود والنصارى، بل إن عند بعضهم كفريات لو سمعها بعض اليهود لاقشعرت أبدانهم، ولقَفّت شعور رؤوسهم، إضافة إلى كون المتصوفة من أشد الناس عداوة للعلم وأهله.

ولعل أكثر ما يعجب من يختار هؤلاء ويريد أن يمكن لهم: أن الكفار لو قتلوا أطفالنا، واغتصبوا نساءنا، فإن ردة فعلهم أن يقولوا: قدر الله وما شاء فعل، ويجب أن نرضى بأمر الله الكوني، ونستسلم له استسلام الميت بيد الغَسّال!!

هذا، ﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١]. ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

أركان الإسلام

وليكن أول حرصك من الإسلام على أركانه، فاجتهد في تعلمها وفهمها، وإقامتها وإدامتها، وتحسينها واتقانها، واجعل أعظم اهتمامك فيها، ورغِّب نفسك في أدائها، ورهبها من التقصير فيها، وتدبر في سبيل هذا الأمر الجليل ما ورد في الكتاب والسنة من عظيم شأنها، وكبير ثوابها، وخطر تركها أو التقصير فيها، والعقوبات المتوعدة على ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟ قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ».

قال: ما الإسلام؟ قال: «الْإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ».

قال: ما الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». الحديث(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ،

---

(١) متفق عليه.

وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدِّقه!

قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

قال: فأخبرني عن أمَارتها. قال :«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لي: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال:

«لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ». قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، حتى بلغ: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]».

ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قلت: بلى يا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨) وغيره.

رسول الله. قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ». الحديث[1].

الصلاة نور

قال الله عز وجل عَقِب آية النور: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

وهل من شيء في المساجد أعظم من الصلاة؟!

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ (أو: تَمْلَأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ[2]، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو: فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا»[3].

وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4].

قال المناوي[5]: «(المشائين)، بالهمز والمد؛ أي: من تكرر منه المشي إلى إقامة الجماعة، (في الظلم)، بضم الظاء وفتح اللام: جمع ظُلْمة بسكونها: ظُلْمة

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم تامًّا قبل قليل.

(٢) قال ابن رجب: «وأما الصدقة فهي برهان، والبرهان: هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس، ومنه سميت الحجة القاطعة: برهانًا، لوضوح دلالاتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس بها علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه». «جامع العلوم والحكم» (٢٣/٢)، بحذف.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) وغيره.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٦١) وغيره، وصححه الألباني.

(٥) «فيض القدير» (٢٠١/٣).

الليل، (إلى المساجد)، القريبة أو البعيدة، (بالنور التام)؛ أي: من جميع جوانبهم، فإنهم يختلفون في النور بقدر عملهم، (يوم القيامة)؛ أي: على الصراط».

قال: «لما قاسوا مشقة ملازمة المشي في ظلمة الليل إلى الطاعة جُوزوا بنور يضيء لهم يوم القيامة، وهو النور المضمون لكل مَشَّاء إلى الجماعة في الظُلَم». اهـ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله[1].

وفي لفظ: عن أنس رضي الله عنه: كان أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بن بِشْرٍ عند النبي ﷺ.

قال القسطلاني: «(ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما)، إكرامًا لهما ببركة نبيهما آية له عليه الصلاة والسلام، إذ خُصّ بعض أصحابه بمثل هذه الكرامة عند حاجتهم إلى النور، وإظهارًا لسر قوله: «بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فعُجِّل لهما مما ادُّخر في الأخرى».

قال ابن رجب[2]: «يحتمل أنهما كانا عنده في المسجد، وأنهما كانا عنده في بيته، فإن كان اجتماعهما به في المسجد، فإنه يستفاد من الحديث أن المشي إلى المساجد والرجوع منها في الليالي المظلمة ثوابه النور من الله عز وجل، وذلك يظهر في الآخرة عِيانًا، وأما في الدنيا فقد يَسْتَكِنّ[3] النور في القلوب، وقد يظهر أحيانًا كرامة لمن أراد الله كرامته ولم يُرِد فتنته.

وإن كان اجتماعهما عند النبي ﷺ في بيته، فإنه يُستنبط منه فضيلة

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) «فتح الباري» (٣/٣٧٩-٣٨٠).

(٣) أي: يستتر.

الذهاب إلى المساجد والرجوع منها في الظلم أيضًا، فإنه أفضل ما مشى إليه المسلمون في الدنيا، فيلتحق بالمشي إلى النبي ﷺ في حياته ذهابًا إليه ورجوعًا من عنده». اهـ.

واعلم أن الصلاة هي صلتك بالله تعالى، وموعدك وإذنك للوقوف بين يديه عز وجل، لتعظيمه ومناجاته ودعائه، واستمداد النور منه، وأنها خير موضوع، وأنها هي العهد الذي بيننا وبين الكفار، فمن تركها فقد كفر.

قال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»[١].

وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[٢].

وعن الحسن قال: يا بن آدم، أي شيء يَعِزّ عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك؟![٣].

وتقدم في الحديث قبل قليل: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨٢) وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «شعب الإيمان» (٥١٤/٤).

«اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ»(٢).

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مر بقبر، فقال: «مَنْ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ؟» فقالوا: فلان. فقال:

«رَكْعَتَانِ أَحَبُّ إِلَى هَذَا مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»(٣).

وعنه رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَـ[ـتْ] قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(٥).

وهذا باب واسع، وكذلك الأمر بالنسبة للصيام والصدقة والحج، فليُنظر فضلها والترغيب فيها والترهيب من تركها في كتاب الله عز وجل، وفي مظانها من كتب الحديث، خصوصًا كتب الترغيب والترهيب.

قال ابن القيم(٦): «وأما الصلاة فشأنها في تفريح القلب وتقويته وشرحه

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٤٣) وغيرُه. وهو في «صحيح الترغيب» (٢٤٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٢٠) وغيرُه، وصححه الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (١٣٨٨).

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه النسائي (٧/٦١-٦٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٦) «زاد المعاد» (٤/٢٠٩).

وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقُواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاورتهم، وانجذاب قُوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة، ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة، وأما القلوب العليلة فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة.

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومُنوِّرة للقلب، ومُبيِّضة للوجه، ومُنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومُنزلة للرحمة، وكاشفة للغُمّة».

الخشوع في الصلاة

واحرص على الخشوع في الصلاة، فإنه روحها وحياتها ونورها، وهو خشوعان:

خشوع الجوارح: بأداء أركان الصلاة العملية من ركوع وسجود وغيرها بالطُّمَأنينة، وإعطائها حقها ووقتها من السكون والاستواء وإقامة الصُّلْب، والإتيان بالهيئات الواردة في القيام والركوع والسجود والجلوس والتنقل بينها، وترك الحركة والعبث والالتفات وسائر ما يخل بالسكينة والطُّمَأنينة والوقار.

وخشوع القلب: بالحرص على أخذ حقه من القنوت لله والتعظيم والذل والخضوع، بحسب أعمال الصلاة من قيام وركوع وسجود وغيرها وما يناسبها من ذلك، وبحضور القلب ورقته في التلاوة والذكر، وتدبر ما يقال في الصلاة كلها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ❁ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ

﴿خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]. الآيات.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسُعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»(٢).

وعن أبي اليَسَرِ صاحب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«مِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي الصَّلَاةَ كَامِلَةً، وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي النِّصْفَ، وَالثُّلُثَ، وَالرُّبُعَ، وَالْخُمُسَ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ»(٣).

ويعين على الخشوع: استشعار المصلي أنه يقف بين يدي الله تعالى، يناجيه ويدعوه ويسأله، وأنه تبارك وتعالى قبل وجهه، يواجهه في قبلته، ويسمعه ويراه ويجيبه(٤)، وأنه سيقف بين يديه في الآخرة، وسيكون أول ما يحاسبه عليه صلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله، كما ورد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟

---

(١) بعض حديث، متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٩٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦١٦) وغيرُه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٣٨).

(٤) أُشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». أخرجه مسلم (٣٩٥) وغيره.

رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قال ابن القيم[(١)]: «لا يزن العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل[(٢)]». اهـ.

ويعينه عليه: أن يظن أن هذه الصلاة قد تكون آخر صلاة يصليها، فيحرص على أدائها بكل خشوع وخضوع، مودعًا للدنيا، مقبلًا على الآخرة.

قال النبي ﷺ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ». الحديث[(٣)].

وقال ﷺ: «اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا». الحديث[(٤)].

ويعينه عليه: تفريغ قلبه في الصلاة من كل شيء سوى ما هو بصدده، من مناجاة الله تعالى وترتيل كلامه والتعظيم له، والاستغراق في سائر أفعال الصلاة الظاهرة والباطنة.

قال ابن كثير[(٥)]: «الخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[(٦)]».

وقال ابن رجب: «أصل الخشوع هو: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء، لأنها تابعة له، كما قال ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ

(١) «طريق الهجرتين - طبعة بكر أبو زيد» (٢/٦٦٧).

(٢) أي: غير مائل.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٥٥ - مختصره). وهو في «الصحيحة» (٢٨٣٩).

(٥) «تفسيره» (٥/٤٠٣ - بيضون).

(٦) فيه إشارة إلى قول النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وقد تقدم آنفًا.

كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ منها، حتى الكلام، لهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي». وفي رواية: «وَمَا اسْتَقَلَّ بِهِ قَدَمِي»[2]». اهـ.

وقال ابن سعدي[3]: «رُوح الصلاة ومقصودها الأعظم حضور القلب بين يدي الله، ومناجاته بكلامه وذكره، والثناء عليه ودعائه، والتضرع إليه وطلب القربة عنده ورجاء ثوابه، وذلك بلا ريب ينير القلب، ويشرح الصدر، ويفرح النفس والروح، ويذهب الهم والغم».

قيام الليل

وهذا فصل استللته واختصرته من كتابي «معاتبة النفس»، وأبقيته متعمِّدًا على ما هو عليه من توجيه الخطاب إلى النفس:

يا نفس، ألستِ قد جربت حياة أهل القيام؟ فقولي لي بالله، هل وجدت ألذ وأطيب، وأشرح للصدر، وأنور للقلب، وأسرَّ للنفس منها؟!!

ومع هذا فإن الخِذلان قد لزمك، والكسل قد استحوذ عليك، والبعد قد حالفك!

يا نفس، إنه الحرمان! يا نفس، ابقَيْ مع هواك وشهواتك! وظَلِّي في صبواتك وهفواتك! لا تتخلَيْ عن سفاسف الحياة! وتمسكي بتوافهها! ومالك

(١) بعض حديث، متفق عليه.

(٢) أخرجه الطحاوي (١٣٩٩) وغيره، عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا ركع قال: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». وصححه الألباني في «أصل صفة الصلاة» (٢/٦٦٤)، وهو في «صحيح مسلم» مطوّلًا، وعنده: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»، دون الجملة الأخيرة.

(٣) «الرياض الناضرة» (ص ١٧)، بتصرف يسير.

ولطلب المعالي! ومالك ولقيام الليالي!

يـا نفـس فـاز الصـالحون بالتقـى فأبصَـروا الرشـد وقلـبي قـد عَـمِي
يـا حُسْـنُهم والليـلُ قـد جنَّـهـم ونـورُهم يفـوق نـورَ الأنـجـمِ
ترنَّمـوا بـالذكر في لـيلـهـم فعيشـهم قـد طـاب بـالـترنُّـمِ
قلـوبهم للذكـر قـد تـفـرَّغـتْ دمـوعهم كلؤلـؤٍ مـنـتـظِـمِ
أسحارهم بهـم لهـم قـد أشـرقـتْ وخُلَـعُ الغفـران خـيرُ الـقِسَـمِ
ساروا وعـدتُ عـن طريـقٍ واضـحٍ دلَّ على الرّشـد دليـلَ الـعَـلَـمِ
دعـني أبكـي مـا حييـت أبـدًا فحُـقَّ لي أبكـي فـلا لا تَـلُـمِ

القيام دأب الصالحين من قبل، فأين أنتِ منهم؟! ودَيْدَنُ العارفين فلستِ والله منهم!

القيام قرة عيون المحبين، ونعيم أرواح المشتاقين، فوا حسرتاه على الجفاء والبعد! ووا أسفا على التفريط في منازل القرب.

قال الله تعالى في ضمن عَدِّ صفات عباده (عباد الرحمن): ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٤].

ثم قال في جزائهم وثوابهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا». فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال:

«هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ

وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[1].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات:١٥-١٩].

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾؛ أي: ترتفع وتتنحى وتبتعد عن الفراش للعبادة.

قال ابن كثير: «﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾؛ يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة.

قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾؛ يعني بذلك: قيام الليل.

وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبي حازم وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين.

وعن أنس أيضًا: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد.

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾؛ أي: خوفًا من وبال عقابه، وطمعًا في جزيل ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومُقَدَّمُ هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٤ و٢٥٢٧) وغيره، وحسنه الألباني.

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينـــا رســـول الله يتلـــو كتابـــهُ إذا انشقَّ معروفٌ من الصبح ساطعُ

أرانـا الهـدى بعـد العـمى فقلوبنـا بـــه موقنـــاتٌ أنّ مـــا قـــال واقـــعُ

يبيــتُ يجــافي جنبَــه عــن فراشــهِ إذا استثقلتْ بالمشـركين المضـاجعُ

وقوله: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾؛ أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفَوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب، جزاءً وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: أخفى قومٌ عملَهم فأخفى اللهُ لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ». ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾(١).

وفي حديث معاذ رضي الله عنه المتقدم آنفًا:

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟». وفيه: «وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ». قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾، حتى بلغ: ﴿يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]»(٢).

وقال الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ

(١) متفق عليه. ومعنى (بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ)؛ أي: دع عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم تامًّا قبل قليل.

قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۞ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۞ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۞ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل:١-٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، قال ابن كثير: «ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦].

وعن حُمَيْدِ بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ الْمُحَرَّمُ»(١).

وعن عمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ،

---

(١) أخرجه النسائي (١٦١٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٣٥٧٩) وغيره، وصححه الألباني. وأصله في «صحيح مسلم».

فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟! وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟! وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال:

«أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا». الحديث[٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»[٣].

قال المناوي[٤]: «(فإنه دأب الصالحين)؛ أي: عادتهم وشأنهم، من دَأَبَ في العمل إذا جَدَّ، فحوَّلوه إلى العادة والشأن. (قبلكم)؛ أي: هي عادة قديمة واظب عليها الكُمَّل السابقون، واجتهدوا في إحراز فضلها».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال:

«يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»[٥].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) «فيض القدير» (٣٥١/٤).

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٨٣١).

مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، وَمِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي.

وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ، وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ»[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ، وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ:

الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ صَبَّرَ لِي نَفْسَهُ.

وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ، وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي، وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ.

وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ، فَسَهِرُوا وَنَصِبُوا ثُمَّ هَجَعُوا، فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْ ضَرَّاءٍ»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»[3].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٣٩٤٩) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٦٣٠).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٣). وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٤٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٨) وغيره. وقال الألباني: «حسن صحيح».

«مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُهُ، وكان إذا مَرِضَ أو كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ»[٤].

وقال الحسن: ما نعلم عملًا أشد من مكابدة الليل، ونفقة هذا المال[٥].

وفي «لطائف المعارف»[٦]: «أين رجال الليل؟! أين الحسن وسفيان وفضيل؟!

يـــا رجـــال الليـــل جِـــدُّوا ... ربَّ داعٍ لا يـــــــــــــــرَدُّ

مـــــا يقـــــومُ الليـــــل إلا ... مَـــــنْ له عـــــزمٌ وجِـــــدُّ

لـــيس شيءٌ كصـــلاة الـــ ... ـــــــليلِ للقـــــبر يُعَـــــدُّ

ما عند المحبين ألذ من أوقات الخلوة بمناجاة محبوبهم، هو شفاء قلوبهم، ونهاية مطلوبهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٠٩ و١٤٥١) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه مسلم (٧٥٥) وغيره.

(٥) «الإحياء» (٣٥٥/١).

(٦) (ص ٤٣-٤٧).

كان داود الطائي يقول في الليل: همك عطل علي الهموم، وحالف بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات.

وكان أبو سليمان يقول: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

يـا نفـس قـومي فقـد نـام الـورى	إن تصنعي الخيرَ فذو العـرش يَـرى
وأنت يـا عـينُ دعي عنـك الكَـرى	عند الصباح يَحْمَد القـومُ السُّـرى

كانت امرأة حبيب توقظه بالليل وتقول: ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقِينا.

يـا راقـد الليـل كـم ترقـدُ	قـم يـا حبيـبي قـد دنـا الموعـدُ
وخـذ مـن الليـل وأوقاتـهِ	وِردًا إذا مـا هَجَـعَ الرُّقَـدُ
مـن نـام حـتى ينقضـي ليلـهُ	لـم يبلـغ المـنزلَ أو يَجْهَـدُ
قـل لأولي الألبـاب أهـل التـقى	قنطـرةُ العـرض لكـم موعـدُ

يا قُوَّام الليل، اشفعوا في النُّوّام! يا أحياء القلوب، ترحموا على الأموات!

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: ما نستطيع قيام الليل؟! قال: أقعدتكم ذنوبكم.

وقيل للحسن: قد أعجزنا قيام الليل؟! قال: قيدتكم خطاياكم.

وقال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم، كبَّلتك خطيئتك.

قال الحسن: إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل».

وقيل للحسن: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا؟! قال: لأنهم

خلَوْا بالرحمن فألبسهم من نوره نورًا[١].

وقال شريك: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار[٢].

قال شيخ الإسلام[٣]: «إن ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر يسرى كثيرًا إلى الوجه والعين، وهما أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب».

قلت: وكان شيخنا أبو محمد عبد الله عزام كثيرًا ما يحث على قيام الليل، ويقول: قم الليل، وإذا أصبحت انظر إلى وجهك في المرآه، وشاهد النور! أو كلمة نحوها.

وقال ابن القيم[٤]: «قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب».

وفي «اللطف في الوعظ»[٥]: «سفر الليل لا يطيقه إلا مُضمّر المجاعة، تجتمع جنود الكسل فتتشبث بذيل التواني، فتُزَيِّن حُبَّ النوم، وتزخرف طيب الفِراش، وتُخَوِّف بردَ الماء، فإذا ثارت شعلة من نار الحزم أضاءت بها طريق القصر، فسمعتْ أُذُنُ اليقينِ هاتفَ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟»[٦]».

وفي «لطائف المعارف»[٧]:

مَـــنْ يُـــرِدْ مُلْـــكَ الجنـــانِ فليَـــدَعْ عنـــه التـــواني

---

(١) «مختصر قيام الليل للمَرْوَزِي» (ص ٥٨).

(٢) «كتاب المجروحين» لابن حبان (٢٠٧/١).

(٣) «الاستقامة» (٣٥٥/١).

(٤) «زاد المعاد» (٢٧٧/٤).

(٥) (ص ١٣).

(٦) يشير إلى ما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ». هذا اللفظ لمسلم.

(٧) (ص ٢٩٨-٢٩٩).

وَلْيَقُــــمْ في ظلمــــة اللَّيــــــ ـــــــلِ إلى نـــور القـــرآنِ

وليَصِــــلْ صـــومًا بصـــومٍ إنّ هـــذا العـــيشَ فـــاني

إنمـــا العـــيش جـــوار اللَّـــ ـــــهِ في دار الأمـــــانِ

وفي «*مختصر قيام الليل*»[(١)]:

صــلاتُكِ نــورٌ والعبــادُ رقــودُ ونومُــكِ ضِــدٌّ للصــلاةِ عنيــدُ

وعمْـرِكِ غَـنْمٌ إنْ عَقَلْـتِ ومُهلـةٌ يَســيرُ ويَفــنى دائبًــا ويَبيــدُ

الصيام

وصيام النهار أخو قيام الليل، وهما أشهر العبادات، وهما شعار الصالحين، وطريق العابدين، وقرة عيون المتقين، ونور قلوب المحبين، فيهما تنافس المتنافسون، وتسابق المتسابقون، واجتهد العاملون، وقد قُرِنا معًا في أحاديث كثيرة.

وفي فضل الصيام قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ

(١) (ص ١٠٥).

اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»[1].

قال ابن سعدي[2]: «واستثنى في هذا الحديث الصيام، وأضافه إليه، وأنه الذي يجزي به بمحض فضله وكرمه، من غير مقابلة للعمل بالتضعيف المذكور الذي تشترك فيه الأعمال، وهذا شيء لا يمكن التعبير عنه، بل يجازيهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي الحديث كالتنبيه على حكمة هذا التخصيص، وأن الصائم لما ترك محبوبات النفس التي طبعت على محبتها، وتقديمها على غيرها، وأنها من الأمور الضرورية، فقدم الصائم عليها محبة ربه، فتركها لله في حالة لا يطلع عليها إلا الله، وصارت محبته لله مقدمة وقاهرة لكل محبة نفسية، وطلب رضاه وثوابه مقدمًا على تحصيل الأغراض النفسية، فلهذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده، فما ظنك بأجرٍ وجزاءٍ تكفل به الرحمن الرحيم الكريم المنان، الذي عمت مواهبه جميع الموجودات، وخَصّ أولياءه منها بالحظ الأوفر، والنصيب الأكمل، وقدر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده على أمور لا تخطر بالبال ولا تدور في الخيال؟! فما ظنك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين؟!

وهنا يقف القلم، ويسيح قلب الصائم فرحًا وطربًا بعمل اختصه الله لنفسه، وجعل جزاءه من فضله المحض، وإحسانه الصِّرف، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١، والجمعة:٤]». اهـ.

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي

---

(١) متفق عليه، وهذا أحد ألفاظ مسلم.

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (ص ٩٤).

إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا». الحديث[1]. وفيه:

«وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»[2].

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«الصِّيَامُ جُنَّةٌ[3] مِنَ النَّارِ، كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ»[4].

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ:

«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[5]»[6].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[7].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣ و٢٨٦٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) أي: وقاية وستر.

(٤) أخرجه النسائي (١٦٧/٤)، وابن ماجه (١٦٣٩)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٥) أي: قاطع للشهوة.

(٦) متفق عليه.

(٧) متفق عليه.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[١].

الأسى على الصيام والقيام

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال حين حضرته الوفاة: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ظمأ الهواجر[٢]، ومكابدة الليل، وأني لم أقاتل هذه الفئة الباغية التي نزلت بنا[٣].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا؟ قال: فقيل: لم نصبح. حتى أُتِي فقيل له: قد أصبحت. قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت، مرحبًا، زائر مُغِبٌّ، حبيب جاء على فاقة، اللهـم إنك تعلم أني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكَرْي الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذكر[٤].

وعن قتادة، أن عامر بن عبد الله لما حُضِر جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليالي الشتاء[٥].

وعن عبيد الله بن محمد التيمي: حدثني بعض أشياخنا، أن رجلًا من عِلْيَةِ هذه الأمة حضرته الوفاة، فجزع جزعًا شديدًا، وبكى بكاء كثيرًا، فقيل له في

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢٤) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) الهجير والهاجرة: اشتداد الحر منتصف النهار، وإنما يعني بظمأ الهواجر: صيام أيام الحر.

(٣) «مختصر قيام الليل للمَرْوَزِي» (ص ٦٢).

(٤) انظر «كتاب المحتضرين» (ص ١١٠)، و«الحلية» (١٠٣/٥).

(٥) «كتاب المحتضرين» (ص ١٤٠).

ذلك، فقال: ما أبكي إلا على أن يصوم الصائمون لله ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم، ويذكره الذاكرون ولست فيهم، فذاك الذي أبكاني[١].

وعن مهدي بن ميمون قال: رأيت حسان بن أبي سنان ـ أحسبه في مرضه ـ قيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار. قيل: فما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة ما بين الطرفين، أُحْيِي ما بين طرفيها[٢].

وعن أبي بكر النيسابوري قال: حضرتُ إبراهيمَ بن هانئ عند وفاته، فجعل يقول لابنه إسحق: يا إسحق، ارفع الستر. قال: يا أبه، الستر مرفوع. قال: أنا عطشان. فجاءه بماء. قال: غابت الشمس؟ قال: لا. قال: فرده، ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]. ثم خرجت روحه[٣].

قلت: أولئك قوم باشر نور الصلاة قلوبهم، ولامس ضياء الصيام أرواحهم، فذاقوا طعم العبادة، ووجدوا حلاوتها، فحزنوا لفراقها، وبكَوْا لفواتها، وقد زهِدوا جنبها في شهوات الدنيا، واستغنَوا بها عن ملذاتها، فتركوا فضولها، وما لا يعنيهم منها، فضلًا عن حرامها، فهنيئًا لهم جنة الدنيا، والتنعم بعبادة الله فيها، وما حصلوا عليه بها من النور والضياء، وهنيئًا لهم جنة الآخرة، وهنيئًا لهم لقاء مَنْ تركوا رغبات أنفسهم من أجله، وقاموا وصاموا إرضاء له، ومن أجله، هنيئًا لهم دار الخلد ولذاتها الباقية: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤].

الجهاد

وهو ذروة سنام الدين[٤]، وعلامة صدق الإيمان، ومحبة الرحمن.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ

(١) «شعب الإيمان» (٤٢٠/٥).

(٢) «كتاب المحتضرين» (ص ١٤٤).

(٣) «تاريخ بغداد» (٢٠٦/٦).

(٤) كما تقدم في حديث معاذ رضي الله عنه، تحت عنوان: أركان الإسلام.

ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف:٤].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن، أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحي بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾.

قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ.

قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام.

قال يحي: فقرأها علينا أبو سلمة.

قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي.

قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير(١).

قلت: يعني: أن أحب الأعمال إلى الله تعالى هو القتال في سبيله، كما في الآية التالية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾.

قال ابن القيم(٢): «و[الله] يحب الجهاد وأهله، بل هم أحب خلقه إليه». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤]..

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٠٩) وغيره، وصحح إسناده الألباني.

(٢) «روضة المحبين» (ص ٦٤).

والجهاد باب الشهادة والطريق إلى نيل أجرها ونورها.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ ﴾ [الحديد:١٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾، قال: أَمَا إنا قد سألنا عن ذلك، فقال:

«أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ.

فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ^:

«لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧) وغيره.

فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ؛ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ».

قال: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾» إلى آخر الآية[1].

وبالجهاد يشفي الله صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويذهب همومهم وغمومهم، فهو نور عظيم تزول به هذه الظلمات المؤلمة المتنوعة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

وقال رسول الله ﷺ: «وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ عَظِيمٌ، يُنَجِّي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ»[2].

قال ابن القيم[3]: «وأما تأثير الجهاد في دفع الهم والغم فأمْرٌ معلوم بالوجدان، فإن النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه اشتد همها وغمها وكربها وخوفها، فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحًا ونشاطًا وقوة، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾. فلا شيء أذهب لجَوَى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد، والله المستعان».

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٢٠) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) بعض حديث، أخرجه أحمد (٣١٤/٥ و٣١٦ و٣١٩ و٣٢٦)، وابن أبي عاصم في «كتاب الجهاد» (رقم ٧)، وغيرهما، وهو حديث صحيح لطرقه وشواهده، انظر «الصحيحة» (٦٢١/٤).

(٣) «زاد المعاد» (٢١٠/٤).

الصبر ضياء

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ». الحديث. وفيه «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»(١).

قال ابن رجب(٢): «والضياء: هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس بخلاف القمر، فإنه نور محض، فيه إشراق بغير إحراق، قال الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس:٥].

ومن هنا وصف الله شريعة موسى بأنها ضياء، كما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس:٥]. وإن كان قد ذكر أن في التوراة نورًا، كما قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة:٤٤]. ولكن الغالب على شريعتهم الضياء، لما فيها من الآصار والأغلال والأثقال.

ووصف شريعة محمد ﷺ بأنها نور، لما فيها من الحنيفية السمحة، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة:١٥].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ولما كان الصبر شاقًّا على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه، كان ضياء، فإن معنى الصبر في اللغة الحبس، ومنه «قَتْل الصبر»، وهو أن يُحبَس الرجل حتى يقتل». اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) وغيره. وقد تقدم.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/٢٤-٢٥).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣ والأنفال:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٢].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥-٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: كنت رَدِيفَ رسول الله ﷺ فقال: «يَا غُلَامُ (أو: يَا غُلَيِّمُ)، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟» فقلت: بلى. فقال: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ». الحديث. وفي آخره: «وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1].

والصبر ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة وما يمكن أن يكون شاقًّا منها على بعض النفوس، كالجهاد والصوم والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها.

وصبر عن المعاصي والشهوات المحرمة، وكثير منها يصعب تركها على كثير من الناس، كل بحسب شهواته ورغباته.

وصبر على أقدار الله تعالى من أنواع المصائب والبليات والأمراض، وغيرها.

قال ابن القيم[2]: «وأكثر أسقام البدن والقلب إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حُفظتْ صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله، فإن الله مع الصابرين، ومحبته لهم، فإن الله يحب الصابرين، ونصره لأهله، فإن النصر مع

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٠٣) وغيره، وصححه الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (٢٣٨٢).

(٢) «زاد المعاد» (٣٠٥/٤-٣٠٦).

الصبر[١]، وإنه خير لأهله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، وإنه سبب الفلاح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]».

وقال[٢]: «إذا قام العبد بالصبر كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية في الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى».

ooooo

(١) كما سيأتي الآن من كلام النبي ﷺ.

(٢) انظر «الوابل الصيب» (ص ٦).

الإيمان نور

قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وقال سبحانه: ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق:١١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٢٨].

قال ابن سعدي(١): «والمؤمن إذا كَمُل إيمانه أنار الله قلبه، فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يُفَرِّق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علمًا وعملًا، وانكشفت عنه الشبهات القادحة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة، وكان قلبه نورًا، وكلامه نورًا، وعمله نورًا، والنور محيط به من جهاته.

والكافر، أو المنافق، أو المعارض، أو المعرِض الغافل، كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها، والله الموفق وحده».

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ

---

(١) «الحق الواضح» (ص ٩٤-٩٥).

عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم:٨].

فيا أيها الإنسان المربوب المقهور تحت عظمة الله، جد وسارع إلى تحصيل نور الإيمان قبل أن يحال بينك وبينه، ماذا تنتظر بإيمانك؟! موتًا مفاجئًا، أم فتنة مضلة، أم زيادة عوائق تحول بينك وبينه، أو تنوع بوائق تمنعك منه، أو الساعة؟!! ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦]، فسارع واخرج من الظلام ولج في النور، قبل ذهاب فرصة الإمكان، وانقضاء الزمان، عندها أنى لك تناوش الإيمان وقد ذهب زمانه وبعد مكانه؟!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۞ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۞ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ [سبأ:٥١-٥٤].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧].

وأما المؤمنون بالله في هذه الحياة الدنيا والمؤمنات، دون المنافقين والمنافقات، فواهًا لنورهم الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم القيامة! وواهًا لما يُبَشّرون به من السعد الأبدي، والفوز السرمدي!

قال من أولاهموه عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ

بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد:١٢-١٣].

وعن أبي الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يُسأل عن الورود. الحديث. وفيه: «وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقًا أَوْ مُؤْمِنًا نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَإِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ النَّارِ مِنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ»[١].

وهكذا كان حال المنافقين في الدنيا، كما قال الله تبارك وتعالى ضاربًا مَثَلهم: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۞ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۞ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:١٧-٢٠].

قال ابن كثير[٢]: «وتقدير هذا المَثَل: أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١) وغيره.

(٢) مختصرًا.

كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغَي على الرشد.

وفي هذا المَثَل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع[1]».

قال: «وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السدي، ثم قال: والتشبيه هاهنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولًا نورًا، ثم بنفاقهم ثانيًا أبطلوا ذلك النور، فوقعوا في حِيرة عظيمة، فإنه لا حِيرة أعظم من حِيرة الدين.

وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: ذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾، وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق، ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾، لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾، لا يسمعون خيرًا، ﴿بُكْمٌ﴾، لا يتكلمون بما ينفعهم، ﴿عُمْيٌ﴾، في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة».

وانظر الفصل الآتي في آخر الكتاب بعنوان «أنوار الآخرة».

التوحيد

ومن الإيمان بالله الإيمان بوحدانيته تعالى: في ألوهيته، وفي ربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

قال شيخ الإسلام[2]: «ولا شيء أحب إلى الله من التوحيد، ولا شيء أبغض

---

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]. وقد ذكره بعد.

(٢) «الاستقامة» (٥٨/٢).

إليه من الشرك».

فأعظم سبب لحصول النور وكل ما ينتج عليه من خيرات الدنيا وخيرات الآخرة هو التوحيد.

قال ابن القيم(١): «فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]. فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه».

العلم نور

وهذا قائم على العلم، وهو العلم بالله تعالى وعظمته وتفرده بالألوهية وصفات الكمال، الموجِبة لأن يُحَب وحده، ويُتوجه إليه بالعبادة وحده، بكل أنواعها، من صلاة وصيام، وتوبة وإنابة، وخوف ورجاء، وسائر عبادات القلب واللسان والجوارح.

وكذلك تفرده بالربوبية للعالمين، من خلق وإحياء وإماتة ورزق وضر ونفع، وغير ذلك.

ويدخل في علم التوحيد: العلم بأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته المجيدة، ذات الكمال المطلق من كل وجه، وإثباتها لله عز وجل دون غيره، على الوجه الذي يليق بكماله وجلاله وجماله.

وأكثر الخلق في غفلة عن هذا العلم الشريف، الذي هو أعظم العلوم وأنفعها للعبد، وأفضلها على الإطلاق، وسائر العلوم إنما هي من أجل تحقيق هذا

(١) «زاد المعاد» (٢/٢٢-٢٣).

العلم والعمل بما يمليه.

قال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

وترجم الإمام البخاري في «صحيحه» بابًا بعنوان: (العلم قبل القول والعمل)، ثم قال: «لقول الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، فبدأ بالعلم».

وقال ابن سعدي: «وهذا العلم الذي أمر الله به، وهو العلم بتوحيد الله، فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور:

أحدها، بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له»(١).

وقال(٢): «المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله، لا يُحَصِّل العبدُ في الدنيا أجلَّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوْحه». اهـ.

وقال ابن القيم(٣): «فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها، هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته، وهو روح السالكين،

---

(١) ولكلامه بقية، وقد أجاد فيه وأفاد، بما لا تجده مفصلًا في كتاب آخر.

(٢) «القول السديد» (ص ١٥٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/٣٦٧).

وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير هممهم إذا قصّروا، فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له، وأعظم الشواهد صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم، وذلك هو العلم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه».

وقال(١): «وأما الخواص فعمدة إيمانهم محبة تنشأ من معرفة الكمال ومطالعة الأسماء والصفات».

وقال(٢): «فأي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله؟! وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة؟! وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه وما له بعد الوصول إليه؟!».

وقال(٣): «العلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته».

وقال(٤): «إنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم ونهاية مرادهم، وذكره والتقرب إليه قرة عيونهم وحياة قلوبهم، فمتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالًا من الأنعام بكثير، وكانت الأنعام أطيب عيشًا منهم في العاجل، وأسلم عاقبة في الآجل». اهـ.

قلت: ويدخل في هذا العلم الشريف: العلم برقابة الله تعالى، وأنه مطلع على أفعال العباد وأقوالهم، عليم بخائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص ٤٧٦).

(٢) «هداية الحيارى» (٥٩١/٢).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (٨٦/١).

(٤) «الصواعق المرسلة» (٣٦٦/١).

ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩].

فاذا تحقق العبد بمعرفة ذلك، وامتلأ قلبه منه استنار وصلح واستقام، وخشي ربه تبارك وتعالى وأطاعه في السر والعلانية، واستحيي منه سبحانه أن يراه على ما يكره أشد من استحيائه ممن يُعَظِّم من الخلق.

هذا، ولا يَصلح القلب ولا يدخله النور بهذا العلم؛ العلم بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حتى يكون قائمًا على مذهب أهل السنة والجماعة، فصلاحه أولًا قائم على معرفة الله والإقرار له بالوحدانية، فلا إله إلا هو، وقائم على معرفة صفاته كما أخبر بها عباده في كتابه، وعلى لسانه نبيه ﷺ، ثم ثانيًا بما توجبه هذه المعرفة من محبة الله وتعظيمه والخوف منه والرجاء له.

قال ابن القيم(١): «ليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذي عليه سكة أهل المدينة النبوية الذي لا يقبل الله عز و جل ثمنًا لجنته سواه من النقد الذي عليه سكة جنكسخان ونوابه من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة وكل من اتخذ لنفسه سكةً وضربًا ونقدًا يروّجه بين العالم، فهذه الأثمان كلها زيوف لا يقبل الله سبحانه وتعالى في ثمن جنته شيئًا منها، بل تُرَدّ على عاملها أحوج ما يكون إليها، وتكون من الأعمال التي قَدِم اللهُ تعالى عليها فجعلها هباءً منثورًا، ولصاحبها نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]».

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٣٩).

نوعا العلم بالله عز وجل

قال شيخ الإسلام[1]: «أما العلم [بالله] فيراد به في الأصل نوعان: أحدهما: العلم به نفسه، وبما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلت عليه أسماؤه الحسنى، وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فإنه لا بد أن يعلم أن الله يثيب على طاعته ويعاقب على معصيته، كما شهد به القرآن والعِيان.

وهذا معنى قول أبي حيان التيمي ـ أحد أتباع التابعين ـ: العلماء ثلاثة: عالم بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله وبأمر الله.

فالعالم بالله الذي يخشى الله، والعالم بأمر الله الذي يعرف الحلال والحرام.

وقال رجل للشَّعبي: أيها العالم. فقال: إنما العالم من يخشى الله.

وقال عبد الله بن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا.

والنوع الثاني: يراد بالعلم بالله: العلم بالأحكام الشرعية».

وقال ابن رجب[2]: «فأفضل العلم العلم بالله، وهو العلم بأسمائه وصفاته، وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته، والتبتل إليه والتوكل عليه، والرضا عنه، والاشتغال به دون خلقه.

ويتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك، والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وما يكرهه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/٣٣٣)، ولكلامه بقية.

(٢) «مجموع الرسائل» (١/٤٠).

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربانيين، العلماء بالله، العلماء بأمر الله». اهـ.

طريقا معرفة الله عز وجل

قال ابن القيم[1]: «الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته. والثاني: التفكر في آياته وتدبرها. فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤]. إلى آخرها. وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]. وهو كثير في القرآن.

والثاني كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢، ومحمد:٢٤]. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]. وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]. وهو كثير أيضًا.

فأما المفعولات: فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه، لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحدًا غير متكرر، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال

---

(١) «الفوائد» (ص ٣١-٣٣).

على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها.

فمفعولاته من أدل شيء على صفاته، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] [فصلت:٥٣].

أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه، كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟! فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه، ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم:١٠]. فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عُرفت به في الحقيقة، وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه».

وقال[2]: «معرفة الله سبحانه نوعان: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها

(١) وتمامها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

(٢) «الفوائد» (ص ٢٢١).

الناس، البَّر والفاجر، والمطيع والعاصي. والثاني: معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخالصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها، وقد قال أعرف الخلق به: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[١]. وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن[٢].

ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله. والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون فقيها في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقدره، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

وقال[٣]: «القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته: فتارة يتجلى في صفات الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، الدال على كمال الذات، فيستنفد حبُّه من قلب العبد

---

(١) بعض حديث، أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره. وقد تقدم قبل قليل.

(٢) «الفوائد» (ص ٦٩-٧١)، بتصرف يسير وحذف.

(٣) «الفوائد» (ص ٢٢١).

قوةَ الحب كلها بحب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغَيران يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يــــراد مــــن القلــــب نســــيانُكم وتــــأبى الطبــــاعُ على الناقــــلِ

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه، وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعِنّة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي».

إلى أن قال: «وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بطاعته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له».

إلى أن قال: «وأنت إذا تدبرت القرآن، وأجَرْته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع».

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ[1]: «أجل الفوائد وأشرفها ما دل عليه الكتاب العزيز، من معرفة الله بصفات كماله ونعوت جلاله، وآياته ومخلوقاته، ومعرفة ما يترتب على ذلك من عبادته وطاعته، وتعظيم أمره ونهيه، وأدلة ذلك مبسوطة في كتاب الله، وأكثر الناس ضل عن هذين الأصلين، مع أنهما زبدة الرسالة، ومقصود النبوة، ومدار الأحكام عليهما».

جمال الله عز وجل

قال ابن القيم[2]: «من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله، سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته.

ولو فرضتَ الخلق كلهم على أجملهم صورة، وكلهم على تلك الصورة، ونسبتَ جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس.

ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤٢٠/١).

(٢) انظر «الفوائد» (ص ٢٦٤-٢٦٦ - طبعة بكر أبو زيد)، ولكلامه بقية.

انتهى إليه بصره من خلقه [1].

ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والاخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال؟!

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعًا، والقوة جميعًا، والجود كله، والاحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات.

وقال عبدالله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه.

فهو سبحانه نور السماوات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

ومن أسمائه الحسنى: الجميل، .وفي الصحيح عنه ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[2].

وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة.

وأما جمال الذات وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرّف بها إلى من أكرمه من عباده، فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار، محجوب بستر الرداء والازار، كما قال رسوله ﷺ فيما

---

(١) كما في الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ". أخرجه مسلم (١٧٩) وغيره.

(٢) بعض حديث، أخرجه مسلم (٩١) وغيره.

يحكي عنه : «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي»[1].

ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء، فإنه سبحانه الكبير المتعال؛ فهو سبحانه العلي العظيم.

قال ابن عباس: حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال.

فما ظنك بجمال حُجِب بأوصاف الكمال، وسُتِر بنعوت العظمة والجلال؟!

ومن هذا المعنى يُفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئًا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات».

التحاب في نور الله

ومن الإيمان: التحاب في الله عز وجل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ مِنْ عِبَادِ الله عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ». قيل: من هم؟ لعلنا نحبهم! قال:

«هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللهِ، مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢][2].

فهم قوم تحابوا في الله مولاهم، لا لأنساب ولا لأرحام، إنما جمعهم على هذه المحبة ما استوى في قلوبهم من نور الإيمان، وولاية الرحمن.

والمؤمنون يحب بعضهم بعضًا، ويتولى بعضهم بعضًا، لاشتراكهم في محبة

---

(١) بعض حديث، أخرجه أبو داود (٤٠٩٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٥٠٨ – موارد) وغيره، وصححه الألباني.

الله الخالصة.

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الأنصار بمحبته لإخوانهم المهاجرين، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

وجعل حبه لمن يحب الأنصار وبغضه لمن يبغضهم، فعن الحارث بن زياد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُحِبُّ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ حَتَّى يَلْقَى اللهَ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ يُحِبُّهُ، وَلَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ حَتَّى يَلْقَى اللهَ [إِلَّا] لَقِيَ اللهَ وَهُوَ يُبْغِضُهُ»(١).

وأحقَّ سبحانه وتعالى محبتَه للمتحابين فيه، وجعل لهم أعظم الأجور، وأكبر الثواب، وأعلى الدرجات، في منازل يغبطهم فيها الأنبياء والشهداء، فعن شُرَحْبِيلَ بن السِّمْطِ دعا عمرو بن عَبَسَةَ السلمي، فقال: يا بن عَبَسَةَ، هل أنت مُحَدِّثِي حديثًا سمعته أنت من رسول الله ﷺ ليس فيه تَزَيُّدٌ ولا كَذِبٌ؟ ولا تُحَدِّثْنِيهِ عن آخر سمعه منه غيرِك. قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: قَدْ حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَصَافَوْنَ(٢) مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَزَاوَرُونَ مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَبَاذَلُونَ(٣) مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ مِنْ أَجْلِي»(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) من الصَّفْو؛ أي: يتبادلون الصفاء والمحبة. أو هي: يَتَصَافُّونَ؛ أي: يجتمعون. وقد جاءت في بعض المصادر، منها «الأوسط» و«الصغير» للطبراني: «يَتَصَادَقُونَ». وكلها ترجع إلى معنًى واحد، أو معانٍ متقاربة.

(٣) من البذل؛ أي: يبذل بعضهم لبعض لله تعالى، لا من أجل الدنيا.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٤٣٨/١٨٣/٣٢) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٣٠٢١).

وعن أبي إدريس الخَوْلاني، أنه قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فتًى شابٌّ بَرّاقُ الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه، وصَدَروا عن قوله، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل. فلما كان الغد هَجَّرْتُ فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله. فقال: آلله؟ فقلت: آلله. فقال: آلله؟ فقلت: آلله. قال: فأخذ بحُبْوَة ردائي فجَبَذَني إليه، وقال: أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»[1].

وفي لفظ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا تَحَابَّ رَجُلَانِ فِي اللَّهِ إِلَّا كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَشَدُّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»[2].

وفي لفظ: «مَا تَحَابَّا الرَّجُلَانِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلَهُمَا أَشَدُّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ[3] مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه بهذه السياقة مالك وغيره، واللفظ الثاني للترمذي (٢٣٩٠)، دون ذكر القصة. وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٨٩٩/١٩٢/٣)، والبخاري في «الأدب الفرد» (٥٤٤) باللفظ الثاني، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) أي: طريقه.

مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا[(١)]؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»[(٢)].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»[(٣)].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ [عَادِلٌ]، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[(٤)].

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ الْعَبْدَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»[(٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ ـ أظنه قال: ـ أَوْثَقُ؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال:

«الْمُوَالَاةُ فِي اللهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»[(٦)].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) أي: تحفظها وتراعيها وتُرَبِّيها كما يربي الرجل ولده. «نهاية».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٧) وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٦) وغيره.

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه الطيالسي (٢٦١٧ – طبعة دار هجر) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٢٣٠٠).

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٧٢٨).

«مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»[1].

محبة الله تعالى

والتحاب في الله فرع عن محبة العباد لله عز وجل وأثر من آثارها، من أجل ذلك وجبت محبة الله للمتاحبين فيه، كما تقدم.

وأعظم أسباب محبة الله للعبد هو التوحيد، وبحسب قوته وضعفه تكون محبة الله لعباده، وبحسب ذلك يكون النور، وبحسب ضده تكون الظلمات، كما تقدم.

قال ابن رجب[2]: «فإذا تحقق القلب بالتوحيد التام لم يبق فيه محبة لغير ما يحبه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من محبة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبه الله، وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله وخشيته، وذلك يقدح في كمال التوحيد الواجب، فيقع العبد بسبب ذلك في التفريط في بعض الواجبات، وارتكاب بعض المحظورات، فإن من تحقق قلبه بتوحيد الله فلا يبقى له هم إلا في الله وفيما يرضيه به». اهـ.

وأقرب الوسائل إلى تحقيق محبة الله عز وجل ونيل ثمرتها، من استنارة القلب المُوجبة لبلوغ غاية استقامته وهدايته، واستنارة الجوارح الموصلة إلى تمام توفيقها وتسديدها هو: بذل الجهد بالتقرب إلى الله تعالى بنوافل العبادات بعد فرائضها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ[3] حَتَّى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/٣٤٧-٣٤٨).

(٣) النوافل: هي ما عدا الفرائض التي افترضها الله سبحانه على عباده من جميع أجناس الطاعات، من صلاة وصيام وحج وصدقة وأذكار، وكل ما نَدَب اللهُ سبحانه إليه ورغّب فيه من غير حَتْمٍ وافتراض. «قَطْر الولي».

أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

قال ابن رجب(٢): «المراد بهذا الكلام: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهَدًا له بعين البصيرة.

ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومن كان حاله هذا قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبته وذكره». اهـ.

قلت: وهذا كله من أثر النور الذي حل في القلب ونزل بساحته وفاض على الجوارح، وهو المشار إليه في «المقدمة»، عند ذكر قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

وفي منزلة المحبة لله عز وجل قال ابن القيم(٣): «هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبرُوح نسيمها تروّح العابدون.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) وغيره. قال شيخ الإسلام: «وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء». «مجموع الفتاوى» (١٢٩/١٨).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/٢٤٥-٣٤٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/٨-٩).

فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حُرِمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عُدِمه حَلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي رُوح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا رُوح فيه».

وللتعمق في هذا الباب، ولمعرفة أسباب محبة العبد لله عز وجل، وأسباب محبة الله للعبد، انظر كتابي الموسَّع: «محبة الله».

○○○○○

الإحسان نور

وهو داخل في الإسلام، وفي الإيمان، وهو أعلى ما يمليه الإيمان ويوجبه من عبادة الرحمن، واتقانها والقيام بها على أكمل وجه وأحسنه، وهو ـ كما تقدم ـ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فهو ثمرة الاستسلام التام لله عز وجل، والإيمان الكامل به، والمعرفة الراسخة بأسمائه وصفاته، وما يستحقه من الإجلال والتعظيم.

فالإحسان أكمل وأعلى وأجل درجات الدين والإيمان، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥].

ويدخل في ذلك كل ما يحبه الله عز وجل، فالإحسان هو الإتقان في كل شيء، في الأقوال والأعمال والنيات، في العبادات والمعاملات، والإحسان إلى النفس بإقامتها على طاعة الله تعالى ودينه، والإحسان إلى الخلق بكل وجوه الإحسان، من بذل المال والمعروف والشفاعة، وإعانتهم على أمورهم، والسعي في حاجاتهم، وأهمه الإحسان إلى الوالدين والأهلين والأولاد والأرحام، والإحسان إلى الجيران والأصحاب، وغير ذلك.

فالمحسن مراقب لله تعالى ومتنبه لاطلاعه عليه، فهَمُّه القيام بمحابّ الله عز وجل على أحسن وجه وأتمّه.

قال ابن القيم[1]: «المراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، فتأمل كل مقام من

---

(١) « إعلام الموقعين » (١٥٦/٤).

مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه!». اهـ.

وقال ابن سعدي: «فمتى منَّ الله على العبد بمعرفة صحيحة متلقاة من الكتاب والسنة، وتفقه في أسماء الله وصفاته، وتعبد لله بها، واجتهد أن يحقق مقام الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، ولهج بذكر الله تعالى، استنار قلبه، وحصل له من لذة المعرفة ومواجيد الإيمان أعظم اللذات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[(١)].

حسن الخلق

ومن الإسلام والإيمان والإحسان[(٢)]: حسن الخلق، وسلامة الصدر، والإحسان إلى الناس، فضلًا عن ترك أذيتهم.

عن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حَجة الوداع:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[(٣)].

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ، كأن على رءوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس، فقالوا: يا رسول الله، أفتنا في كذا، أفتنا في كذا. الحديث. وفيه:

قالوا: فمن أحب عباد الله إلى الله؟ قال: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[(٤)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي ﷺ يقول:

---

(١) «توضيح الكافية الشافية» (ص ٣٨٩).

(٢) كما سيأتي بيانه، ويتضح برهانه.

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وابن حبان (٤٨٦٢)، واللفظ له، وغيرهم، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/١٨١/ رقم ٤٧١) وغيرِه، والحاكم (٤/٤٤١)، وغيرُهما، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٢).

«أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟». فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثًا، قال القوم: نعم يا رسول الله. قال: «أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا»[١].

فاحرص يا عبد الله، يا من تبتغي محبة الله تعالى ورضاه، وتحرص على النور لقلبك، والإشراق لنفسك، على أن تتحلى بالأخلاق الحسنة الحميدة، من الصدق وطيب الكلام والتواضع والجود والإحسان والرحمة والعفو وسلامة الصدر، وسائر الصفات التي أُمر بها في الكتاب والسنة، أو مدحها الله عز وجل، أو أثنى على أهلها، أو وعد عليها بالأجر والثواب[٢].

واحرص على أن تتخلَّى عن الأخلاق السيئة المذمومة، من الكذب وخبث الكلام والكبر والشح والبخل والقسوة والحقد وغِلّ الصدر، وسائر الصفات التي نُهي عنها في الكتاب والسنة، أو ذمها الله عز وجل، أو ذم أهلها، أو توعد عليها بالعقوبة والعذاب[٣].

وقد قال الله تعالى في حق رسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

فإن كنت تحب الله تعالى صادقًا، فاتبع رسولَه ﷺ في أخلاقه وغيرها، يحببْك اللهُ، كما قال سبحانه ـ وقد تقدم ـ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

وعن مسروق قال: كنا جلوسًا مع عبد الله بن عمرو يحدثنا، إذ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول:

«إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب» (٢٧١) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) وسيأتي تفصيل كثير منها.

(٣) وسيأتي تفصيل كثير منها.

(٤) متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»(١).

قال الشوكاني(٢): «قوله: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ) إلخ، فيه دليل على أن من ثبت له مزية حسن الخُلُق كان من أهل الإيمان الكامل، فإن كان أحسن الناس خُلُقًا كان أكمل الناس إيمانًا، وإن خصلة يختلف حال الإيمان باختلافها لخليقة بأن ترغب إليها نفوس المؤمنين». اهـ

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»(٤).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»(٦).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، واللفظ له، وغيرهما، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) «نيل الأوطار» (٦/٢٤٥-٢٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وغيره، وحسنه الألباني.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وغيره، وحسنه الألباني.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:

«أَنَا زَعِيمٌ[١] بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ[٢] وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»[٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ»[٤].

قال الماوردي[٥]: «حسن الخلق أن يكون سهل العريكة، لَيّن الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة».

وقال ابن القيم[٦]: «الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين».

وقال[٧]: «الأخلاق مواهبُ، يهب الله منها ما يشاء لمن يشاء، ويَجْبل خَلْقه على ما يريد منها». اهـ.

وقال الغزالي[٨]: «حسن الخُلُق هو الإيمان، وسوء الخُلُق هو النفاق».

وقال[٩]: «الأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة،

---

(١) قال أبو حاتم: «الزعيم: لغة أهل المدينة، والحميل: لغة أهل مصر، والكفيل: لغة أهل العراق».

(٢) (المراء): الجدال، والتماري والمماراة: المجادلة على مذهب الشك والريبة، ويقال للمناظرة: مماراة، لأن كل واحد منهما يَستخرج ما عند صاحبه ويمتريه، كما يمتري الحالب اللبن من الضَّرع. «نهاية»

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٩٣٨).

(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٤٣).

(٦) «مدارج السالكين» (٢/٢٩٤).

(٧) «الفروسية» (ص ٤٩٩).

(٨) «الإحياء» (٣/٦٩).

(٩) «الإحياء» (٣/٤٩).

والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان، وجوار الرحمن».

وقال الحسن: من ساء خُلُقه عَذّب نفسَه[1].

سلامة الصدر

والصدر محل النور ومكانه، ومنه ينبثق إلى الوجه وسائر الجوارح، فتستقيم وتهتدي وتصيب الحق وتختاره، فإذا سلم الصدر من سَيِّء الأخلاق وتحلى بصالحها، فقد تخلص من ظلماته وحَلّ فيه النور.

واعلم يا عبد الله، أن أفضل ما تأتي الله عز وجل به يوم القيامة، وأفضل ما تَقْدَم به على الدار الآخرة، هو سلامة قلبك ونظافته وطهره، سلامته من الكفر والشرك والمعصية والبدعة، وسلامته من الغش والغل والحسد والحقد على المسلمين.

قال الله تعالى حاكيًا عن الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩].

وقال سبحانه: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٤].

قال ابن القيم[2]: «القلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغل، والحقد، والحسد، والشح، والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله.

فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي

---

(١) «الإحياء» (٥٢/٣).

(٢) «الداء والدواء» (ص ٢٨٣-٢٨٤ - طبعة بكر أبو زيد).

الجنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوًى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حُجُبٌ عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر.

ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها». اهـ.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال:

«كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ». قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مَخْمُومُ القلب؟ قال:

«هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»(١).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢).

قال ابن رجب(٣): «أفضل الأعمال سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع، التي تقتضي الطعن على سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) «لطائف المعارف» (ص ١٣٩).

ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وقد وصف الله تعالى المؤمنين عمومًا بأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]».

وقال شيخ الإسلام(١): «ومن أعظم خبث القلوب أن يكون في قلب العبد غِلٌّ لخيار المؤمنين وسادات أولياء الله بعد النبيين».

وقال ابن العربي(٢): «لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجَبًا متكبرًا، وقد شرط النبي ﷺ في الإيمان: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وقال قاسم الجُوعي: أصل الدين الورع، وأفضل العبادة مكابدة الليل، وأقصر طرق الجنة سلامة الصدر(٣).

وعن سفيان بن دينار قال: قلت لأبي بشير ـ وكان من أصحاب علي ـ: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا. قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا. قال: قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم(٤).

وعن الفضيل قال: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس، وسلامة الصدر، والنصح للأمة(٥).

قال ابن رجب(٦): «الاشتغال بتطهير القلوب أفضل من الاستكثار من الصوم والصلاة مع غش القلوب ودَغَلها، ومَثَل من يستكثر من الصوم والصلاة

---

(١) «منهاج السنة» (٢٢/١).

(٢) «أحكام القرآن» (٤٥٩/٣).

(٣) «تاريخ دمشق» (١٢٣/٤٩).

(٤) «الزهد» لهناد (٦٠٠/٢).

(٥) «شعب الإيمان» (٣١٦/٣٤).

(٦) «لطائف المعارف» (ص ٢٥٥).

مع دَغَل القلب وغشه كمَثَل من بذر بذرًا في أرض دَغِلة[١] كثيرة الشوك، فلا يزكو ما ينبت فيها من الزرع، بل يمحقه دَغَل الأرض ويفسده، فإذا نظفت الأرض من دَغَلها زكى ما ينبت فيها».

وقال السَّقَطي: من أجل أخلاق الأبرار: سلامة الصدر للإخوان، والنصيحة لهم[٢].

وقال المحاسبي[٣]: «لا طريق أقرب من الصدق، ولا دليل أنجح من العلم، ولا زاد أبلغ من التقوى، وما رأيت أنفى للوسواس من ترك الفضول، ولا أنور للقلب من سلامة الصدر». اهـ.

وقال شيخ الإسلام[٤]: «لا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين، بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح به على غيرهم». اهـ.

قلت: وهي وصف أهل الجنة، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

وعن زيد بن أسلم قال: دُخِل على أبي دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيءٌ أوثقَ عندي من اثنتين: أمّا إحداهما: فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأمّا الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليمًا[٥].

ومن أسباب سلامة القلب من غله وغشه: إخلاص العمل لله تعالى، والنصيحة للمسلمين، عامتهم وخاصتهم، ولزوم جماعتهم، كما قال النبي ﷺ:

---

(١) أي: فيها شجر كثير ملتف، يمنع من بذرها.

(٢) «آداب العشرة» للغَزّي (ص ٢١).

(٣) «رسالة المسترشدين» (ص ١٦١-١٦٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/٢٤٥).

(٥) «طبقات ابن سعد» (٤/٥١٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١/٢٤٣).

«ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[١].

قال الزمخشري في «الفائق»: «والمعنى أن هذه الخلال يُستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الدَّغَل[٢] والفساد. و(عليهن): في موضع الحال؛ أي: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن». اهـ.

ومن أسباب سلامة القلب: الرضا بعطاء الله لعباده، والقناعة بما قسم للعبد منها.

قال ابن القيم[٣]: «الرضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغِش والدَّغَل والغِل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضًا كان قلبه أسلم، فالخَبَث والدَّغَل والغِش قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا». اهـ.

فلا شيءَ قط مثلُ حسن الخلق وطهارة القلب وسلامة الصدر، ولا شيء أثقل في الميزان، ولا أحب إلى الرحمن سبحانه منها، فهي التي تبلغ بالعبد كل مبلغ، وترفع درجته في أعلى الجنة.

فاحرص يا عبد الله على نظافة قلبك وطهارت، وأولِ ذلك بقليل مما توليه جسدك وثيابك، وبالله، ما فائدة صلاح الجسد وجماله والحرص على قوَّته وبنيته وسمعه وبصره والروح خاوية على عروشها، والقلب أعمى أصم أبكم؟! يا عبد

---

(١) بعض حديث، أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) الدَّغَل: الخيانة والرِّيبة والفساد.

(٣) «مدارج السالكين» (٢٠١/٢).

الله، أنت حي بالجسد والروح، فكما أن الجسد يحيا بالطعام والشراب وسائر مقومات حياته ويمرض أو يموت بنقصها أو عدمها، فكذلك الروح تحيا وتستنير بعبادة الله تعالى وذكره، وتمرض أو تموت وتظلم دونها، فكم من مبصر أعمى القلب لا بصيرة له!! وكم من صحيح السمع أصم القلب لا يسمع الحق ولا يستجيب له!!

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»(١).

فذكر الرب حياة القلب، إذا فقده مات، وإن كان حيًّا بين الناس! كما أن الطعام حياة البدن، إذا فقده مات.

ولله در القائل:

يا خادمَ الجسم كم تشقى بخدمتـهِ ... أتطلـبُ الـربحَ ممـا فيـه خسـرانُ

أقبلْ على النفس واستكمل فضائلَها ... فأنـت بـالنفس لا بالجسـم إنسـانُ

وقال ابن القيم(٢): «وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكرًا، فإنْ شَكَرَه بتقواه وصيانته ازداد جمالًا على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قَلَبَه له شينًا ظاهرًا في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحًا وشينًا، وينفر عنه من رآه، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحًا وشينًا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

يـا حَسَـنَ الوجـه تَـوَقّ الخَنـا ... لا تبـدلن الـزَّين بالشَّـينِ

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) انظر «روضة المحبين» (ص ٢٢٢-٢٢٣).

ويــا قبــيح الوجــه كــن محســنًا لا تجمعـــــن بـــــين قبيحـــــينِ

وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرآة، فإن رأى صورته حسنة لم يَشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل».

ooooo

التقوى نور

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، قال ابن القيم[١]: «وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور، وأن مشيهم بغير النور غير مُجْدٍ عليهم، ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه.

وفيه: أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزَّمانة[٢] والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم، ولا لأحوالهم، ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامُهم».

قال: «وفي قوله تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة، وهي: أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه». اهـ.

قلت: ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩].

والتقوى إذا أُفردت معناها: الإيمان المتضمن الخوف من الله تعالى، واتقاء عذابه وسخطه، بتصديقه فيما أخبر، وطاعته بفعل ما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، فالتقوى والإيمان إذا افترقا في اللفظ اجتمعا في المعنى، ودخل كل منهما في الآخر، وإذا اجتمعا في اللفظ ـ كما في الآيتين المتقدمتين ـ افترقا في المعنى، فيكون الإيمان هو ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ،

(١) «اجتماع الجيوش» (٢/٤٣-٤٤).

(٢) الزَّمَانة: المرض، والزَّمَانة: الضعف والفتور، زَمِن يَزْمَن، زَمْنًا وزَمَانة وزُمْنة، فهو زَمِن وزَمين.

وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

وتكون التقوى هي: اتقاء الله تعالى وخوفه، وأن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وسخطه حجابًا يقيه، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وتأمل مقابلة التقوى (التي دخل فيها الإيمان) بضدها وهو الكفر، في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء:١٣١].

ومقابلتها بما يساويها وهو الإسلام، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

والإسلام هو ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

ومجيء هذا الأصل من اجتماع المعاني أو افتراقها كثير في كلام الله عز وجل وكلام نبيه ﷺ.

واعلم عبدَ الله، أن في التقوى جِماع كل خير ونور، واندفاع كل شر وظُلمة، في الدنيا والآخرة، فإن الله عز وجل مع المتقين، ويحبهم، ويرحمهم، ويدفع عنهم السوء والمخاوف والأحزان، ويرد عنهم كيد الأعداء من الإنس والجان، ويجعل لهم من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، ويجعل لهم فرقانًا، ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض، ويصلح لهم أعمالهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويغفر لهم ذنوبهم، وييسر لهم الأمور، ويُعْظِم لهم الأجور، ويوفقهم لخيري الدنيا والآخرة، ويجعل لهم البشرى في الحياة

---

(١) بعض حديث، أخرجه مسلم (رقم ٨) وغيره. وقد تقدم تامًّا.

الدنيا: من التوفيق، والهداية، والثناء الحسن، والمودة في القلوب، والرؤى الصالحة، والبشرى في الآخرة: من النعيم المقيم، والفوز العظيم، وصحبة الأبرار، ومنازل الأخيار، والقرب من الرحمن، والفوز بالرضوان، وهذا كله وأكثر منه قد جاءت به الدلائل الواضحات، وصرحت به الآيات البينات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»(١).

وقد ابتدأ الله عز وجل كتابه بعد أن افتتحه بأم القرآن بأن أخبر أنه هدًى للمتقين، فقال الرحمن الرحيم سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١-٢].

هذا، والجنة وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قد أعدها الله تبارك وتعالى للمتقين، وسماها باسمهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٠-٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وغيره، وحسنه الألباني.

والتقوى هي الميزان الذي يوزن به العباد عند الله عز وجل، وبقدرها يَشرف العبد ويَكرم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قال الطبري(١): «قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؛ يقول تعالى ذكره: إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم أشدكم اتقاء له، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتًا ولا أكثركم عشيرة». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ: من أكرمُ الناس؟ قال: «أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ». الحديث(٢).

وعن سَمُرَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:
«الحَسَبُ الْمَالُ، وَالْكَرَمُ التَّقْوَى»(٣).

قال شيخ الإسلام(٤): «ليس في كتاب الله آية واحدة يَمدح فيها أحدًا بنَسَبه، ولا يَذم أحدًا بنَسَبه، وإنما يَمدح بالإيمان والتقوى، ويَذم بالكفر والفسوق والعصيان».

وقال أبو النعمان البصري للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، بلغني أنك رجل من العرب، فمن أي العرب أنت؟ فقال لي: يا أبا النعمان، نحن قوم مساكين، وما نصنع بهذا؟!(٥).

ولأبي العتاهية:

ألا إن تقوى الله أكرمُ نِسبةٍ ... تَسَامَى بها عند الفَخَار كريمُ

---

(١) «تفسيره» (٣٩٩/١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٣، وفي مواضع أُخَر).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٧١) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٣٠/٣٦).

(٥) انظر «طبقات الحنابلة» (٢٥٩/١).

وله:

ألا إنما التقوى هي العز والكرمْ وحُبُّك للدنيا هو الذل والعَدَمْ
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ إذا صحح التقوى وإن حاك أو حَجَمْ

غض البصر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]. الآيات.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]. الآية.

قال ابن القيم(١): «قال تعالى عَقِيبَ أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]. وسر هذا الخبر: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يُحِسّه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صورة الحقائق كما هي عليه، وإذا صَدِئت لم ينطبع فيها صورة المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون». اهـ.

وقال وهو يَعُدّ فوائد غض البصر(٢): «الخامسة: أنه يكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يُلْبِسه ظُلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عَقِيب الأمر بغض

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٤٨/١).

(٢) «الداء والدواء» (ص ٤١٦-٤١٨ – طبعة بكر أبو زيد)، وانظر « إغاثة اللهفان » (٤٨/١). وانظر أيضًا «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٥٢/٢١-٢٥٨)!

البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]. ثم قال إثر ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]؛ أي: مَثَل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدع وضلالة، واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا نفذ ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام.

السادسة: أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، وكان [أبو] شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال، لم تخطئ له فراسة. وكان [أبو] شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئا عوضه الله خيرًا منه، فإذا غض بصره عن محارم الله، عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبس بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة، والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة، فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعَمَه الذي هو فساد البصيرة، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعَمَه البصيرة، وسكر القلب».

○○○○○

التوبة نور

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم:٨].

قال ابن سعدي: «قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون برَوحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار التي تُعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله». اهـ.

قال ابن القيم[(١)]: «فإذا اطمأنت[(٢)] من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكَيس، ومن صولة العُجب إلى ذلة الإخبات، ومن التِيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل، فقد باشرت روح الطُّمَأنينة.

وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة، فهي أول مفاتيح الخير، فإن الغافل

(١) «الروح» (ص ٢٢٤-٢٢٥).

(٢) يعني: النفس.

عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالًا منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سِنَة القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات، فاشتد إخلاده وركوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات، ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين.

فمتى انكشف عن قلبه سِنَة هذه الغفلة، بزجرة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن، أو همة علية أثارها مِعْول الفكر في المحل القابل، فضرب بمِعْول فكره، وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة، فقال:

ألا يــا نفــس ويحــك ســاعديني	بســعي منــك في ظُلَــم الليــالي
لعلــك في القيامــة أن تفــوزي	بطيــب العــيش في تلــك العــلالي

فأثارت تلك الفكرة نورًا، رأى في ضوئه ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه، من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وعدم وفائها لبنيها، وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلًا: ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٦]. فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها، مستدركًا بها ما فات، مُحْيِيًا بها ما أمات، مستقبلًا بها ما تقدم له من العثرات، منتهزًا فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات.

ثم يلحظ في نور تلك اليقظة: وفود نعمة ربه عليه من حين استقر في الرحم إلى وقته وهو ينقلب فيها ظاهرًا وباطنًا، ليلًا ونهارًا ويقظة ومنامًا، سرًّا

وعلانية، فلو اجتهد في إحصاء أنواعها لما قدر، ويكفي أن أدناها نعمةُ النفَس، ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما ظنك بغيرها؟!

ثم يرى في ضوء ذلك النور: أنه آيِسٌ من حصرها وإحصائها، عاجز عن أداء حقها، وإن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة منها، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله.

ثم يرى في ضوء تلك اليقظة: أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه، هذا لو كانت أعماله منه! فكيف وهي مجرد فضل الله ومنته وإحسانه؟! حيث يسرها له وأعانه عليها وهيأه لها وشاءها منه وكوّنها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها، فحينئذ لا يرى أعماله منه، وأن الله سبحانه لن يقبل عملًا يراه صاحبه من نفسه، حتى يرى عين توفيق الله وفضله عليه ومنته، وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه، وما به من نعمة فمن الله وحده، صدقة تصدق بها عليه، وفضلًا منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسببٍ ويستأهله بوسيلة، فيرى ربَّه ووليه ومعبوده أهلًا لكل خير، ويرى نفسه أهلا لكل شر، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة والظاهرة والباطنة، وهو الذي يرفعها ويجعلها في ديوان أصحاب اليمين.

ثم تبرق له في نور تلك اليقظة بارقة أخرى، يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله، وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نِعَم الله عليه وأياديه رأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يُبْق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه، فتطامن[1] قلبه وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه، وسار إلى الله ناكس الرأس،

(١) أي: خشع وتواضع، ضد التكبر والتعالي.

بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله، قائلًا: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[1]، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلًا لخير، فيوجب له أمرين عظيمين، أحدهما: استكثار ما من الله عليه. والثاني: استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت.

ثم تبرق له بارقة أخرى، يرى في ضوئها عزةَ وقته وخطرَه وشرفَه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعِمارته الريح والسعادة، فيَشحّ بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة: ما تقتضيه يقظته من سِنَة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة، والغَيرة لربه أن يؤثر عليه غيره، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته بيعه بثمن بخس، في دار سريعة الزوال، وعلى نفسه أن يملك رقَّها لمعشوق لو فكر في منتهى حسنه ورأى آخره بعين بصيرة لَأَنِف لها من محبته.

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرُها إلى الله والدار الآخرة».

السير إلى الله تعالى

قال ابن القيم[2]: «قاعدة: السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية.

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا

(١) كما في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:
«سَيِّدِ الْاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». الحديث. أخرجه البخاري وغيره.

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٣٣٢-٣٣٤ - طبعة قطر).

فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر.

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر.

وكلما سكنت نفسه من كَلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة، فهو يقول: يا نفس أَبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت السير وصلت حميدة مسرورة جَذِلة، وتلقتك الأحبة بأَنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من دَرج تلك الساعة، فاللهَ اللهَ لا تنقطعي في المفازة! فهو والله الهلاك والعَطَب لو كنت تعلمين!

فإِن استصعبت عليه فليذكرها ما أَمامها من أحبابها، وما لديهم من

الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها، فإنهم وراءها في الطلب، ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أَيها شاءت.

وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟! وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه الملتقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك! ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧]!».

○○○○○

الكفر ظلمات

قال الله تبارك وتعالى بعد آية النور وبعد ذِكر مَثَل نوره في قلوب المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۞ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:٣٩-٤٠].

تقدم تفسير هاتين الآيتين وبيان وتوضيح المراد بهذين المَثَلَيْن المضروبين لأعمال الذين كفروا.

وقال شيخ الإسلام(١): «فالأول: مَثَل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها، يحسبها صاحبها شيئًا ينفعه، فإذا جاءها لم يجدها شيئًا ينفعه، فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال.

والثاني: مَثَل للجهل البسيط، وعدم الايمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض، لا يبصر شيئًا، فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]».

وقال(٢): «فذكر سبحانه مَثَلَيْن: أحدهما: مَثَل الكفر والجهل المركب الذي يحسبه صاحبه موجودًا، وفي الواقع يكون خيالًا معدومًا كالسراب، وأن القلب عطشان إلى الحق كعطش الجسد إلى الماء، فإذا طلب ما ظنه ماء وجده سرابًا، ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾. وهكذا تجد عامة هؤلاء الخارجين

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٠١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/٧٥).

عن السنة والجماعة.

والمَثَل الثاني: مَثَل الكفر والجهل البسيط الذي لا يتبين فيه صاحبه حقًّا، ولا يرى فيه هدًى، والكفر المركب مستلزم للبسيط، وكل كفر فلا بد فيه من جهل مركب..

فضرب الله سبحانه المَثَلَيْن بذلك، ليبين حال الاعتقاد الفاسد، ويبين حال عدم معرفة الحق، وهو يشبه حال المغضوب عليهم والضالين، حال المصمِّم على الباطل حتى يحل به العذاب، وحال الضال الذي لا يرى طريق الهدى.

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يرزقنا الاعتصام بالكتاب والسنة». اهـ

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:٣٩].

فالمكذبون بآيات الله عز وجل الضُّلال في ظلمات تكذيبهم وضلالهم، وفي ثمرته من الشقاوة والضنك والعذاب، والمهتدون الذين هم على الصراط المستقيم بضد ذلك، فهم في النور والسعادة والحبور.

المعاصي ظلمات

والمعاصي كلها ظلمات، كبائرها وصغائرها، وهي درجات متفاوتة في الإثم والظُلمة، لا يحصيها إلا الله تعالى.

قال ابن القيم[(١)]: «ومن عقوبات المعاصي: أنها تُعمي بصيرة القلب، وتَطمس نوره، وتَسُدّ طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى

(١) «الداء والدواء» (ص ١٨٧-١٨٨ – طبعة بكر أبو زيد).

قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مَهْلِك يسقط فيه ولا يبصر، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة! ويا سرعة العطب! ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ[1]: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مُمْتَلِئَةٌ عَلَى أَهْلِهَا، ظُلْمَةً، وَإِنَّ اللَّهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ».

فإذا كان يوم المعاد وحُشر العباد علت الظلمة الوجوه علوًّا ظاهرًا يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أسود مثل الحُمَمَة، فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها! فكيف بقِسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم؟! والله المستعان».

صغائر الذنوب

قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۞ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥١-٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

---

(١) متفق عليه، وهذا اللفظ ـ بنحوه ـ عند مسلم وحده.

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبَ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

«يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ(٣) قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]»(٤).

ولابن المعتز:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها فهْو التقى

واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تَحقرنّ صغيرةً إن الجبال من الحصى

ولغيره:

لا تحقرنّ من الذنوب صغيرًا إن الصغير غدًا يعود كبيرًا

إن الصغير وإن تقادم عهدهُ عند الإله مسطرٌ تسطيرًا

فازجر هواك عن البطالة لا تكنْ صَعْبَ القِياد وشَمِّرَنْ تشميرًا

(١) أخرجه الطبراني في «معاجمه» الثلاثة (٩٠٤ و٧٣٢٣ و٥٨٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٣٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) سُقل لغة في صُقل؛ أي: جُلِي ولُمِّع وهُذِّب وأُزيل صدؤه، كما يصقل الإناء والسيف، فيصير أملس مصقولًا.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) وغيره، وحسنه الألباني.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[1]، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا[2]، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ». الحديث[3].

قال المنذري[4]: «ومعنى الحديث: أن القلب إذا افتُتِن وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات خرج منه نور الإيمان، كما يخرج الماء من الكوز إذا مال أو انتكس». اهـ.

التحذير من البدع

واحذر البدع والمحدثات، فإنها أخطر أنواع المعاصي، إذ أن صاحبها يتخذها قربة إلى الله تعالى، ولأن فيها نوع استدراك على الدين والشريعة، ونوع اتهام لها بالنقص وعدم الكمال! والعياذ بالله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور:٦٣].

وقال ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[5].

---

(١) مكدرًا مغبرًا، فلون هذا القلب أسود فيه يسير من شبه البياض، وهو الكُدرة والغُبرة.

(٢) مقلوبًا منكوسًا منحرفًا، فهو مع انقلابه إلى أسفل مائل منحرف، وهو أمنع ما يكون في حفظ الماء، وأشد ما يكون في حفظ الهواء، فذاك القلب مثل هذا الكوز، ليس فيه خير، وإنما الهوى والشر.

(٣) أخرجه مسلم (١٤٤)، وهو في «صحيح البخاري» بنحوه، دون ذكر عرض الفتن، ودون ذكر القلبين.

(٤) «الترغيب» (٣/٢٣١).

(٥) بعض حديث، أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

وعن عمرو بن زُرَارة قال: وقف عليَّ عبدُ الله[1] وأنا أقص في المسجد، فقال: يا عمرو، لقد ابتدعتم بدعة ضلالة، أو إنكم لأهدى من محمد ﷺ وأصحابه. ولقد رأيتهم تفرقوا عني حتى رأيت مكاني ما فيه أحد[2].

وعنه رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتُتَّخذ سنة مبتدعة، يجري عليها الناس، فإذا غُيِّرَ منها شيء قيل: قد غُيِّرَتِ السنة؟! قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّهَ لغير الدين»[3].

قال الشاطبي[4]: «فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها. لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع، ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكًا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]. فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا».

وقال الشاطبي: «المبتدع معاند للشرع ومشاقٌّ له، لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طُرُقًا خاصة، على وجوه خاصة، وقَصَر الخلق عليها بالأمر والنهي،

(١) يعني: ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٦٣٧ و٨٦٣٩) وغيره، وقال المنذري في «الترغيب»: «رواه الطبراني في «الكبير» بإسنادين أحدهما صحيح». وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٥٩).

(٣) أخرجه الدارمي (١٩١ و١٩٢)، والحاكم (٨٥٧٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٣٥)، واللفظ له، وغيرهم، وصححه الألباني، انظر «تحريم آلات الطرب» (ص ١٦)، و«صحيح الترغيب» (رقم ١١١).

(٤) «الاعتصام» (٤٩/١).

والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها إلى غيرها، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين.

فالمبتدع رادٌّ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثَمَّ طُرُقًا أُخَر، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعيَّن، وأن الشارع يعلم ونحن أيضًا نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع أنه علم ما لم يعلمه الشارع!!

وهذا إن كان مقصودًا للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين». اهـ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ»[1].

والمعنى: أنه سبحانه حجبها ومنعها عنه منعًا كونيًّا، إذ إنه يعتقد أنها قربة، فكيف يتوب منها؟! ولو تاب منها شرعًا فإنه سبحانه يتوب عليه، وهو التواب الرحيم، الذي يغفر أي ذنب تاب منه صاحبه مهما كان عظيمًا[2].

وقال ابن القيم[3]: «وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟! فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة، وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدًا.

فإن السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة، إذ لا سلطان للظُّلمة مع سلطان الشمس.

ولا يُري العبدَ الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٢) وغيرُه. وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٠).

(٢) وانظر كلام شيخ الإسلام على هذا في «مجموع الفتاوى» (١١/٦٨٤-٦٨٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٣٧٤).

إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللَّجْأ إلى الله، والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته».

وقال ابن باديس[١]: «لا دواء للبدع الشيطانية إلا نشر السنة النبوية».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «البدع تكون في أولها شبرًا، ثم تكثر في الأتباع، حتى تصير أذرعًا وأميالًا وفراسخ».

وقال[٣]: «البدع لا تزال تُخرج الإنسان من صغير إلى كبير، حتى تخرجه إلى الإلحاد والزندقة».

وقال[٤]: «إنما يظهر من البدع أولًا ما كان أخف، وكلما ضَعُفَ مَنْ يقوم بنور النبوة قويت البدعة».

○○○○○

---

(١) «الآثار» (٢/٢٤٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/٤٢٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٣٠٦).

(٤) «التدمرية» (ص ١٩٤ - مكتبة العبيكان).

أنوار الآخرة

وكما اتبع المؤمنون في الدنيا نور الإيمان والهداية والقرآن، فلهم في الآخرة النور العظيم، في وجوههم، وبين أيديهم، ومن كل جوانبهم، وعلى الصراط، وفي كل موطن من مواطن الآخرة، ويكون حظهم منه بحسب قوة إيمانهم وصالح أعمالهم، إلى أن يدخلوا جنات النعيم، حيث الأنوار العظيمة، بأنواعها الكثيرة، التي لا يمكن أن يعبر عن حقيقتها وجلالتها لسان، ولا يخطر كنهها على جَنان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ». ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧][(١)].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال:

«سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

---

(١) متفق عليه. ومعنى: (ذُخْرًا)؛ أي: جَعلتُ ذلك لهم مذخورًا. و(بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ) معناه: دع عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. فإن أضيفت «مِنْ» في أول الكلام؛ أي: «مِنْ بَلْهِ مَا قَدْ أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ» ـ كما في «سنن ابن ماجه» (٤٣٢٨) ـ كان المعنى: من غير ما أطلعكم الله عليه. وانظر ـ إن شئت ـ «الفتح» (٨/٥١٦-٥١٧).

قال: «وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]. الآية[١]»[٢].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ[٣] مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ، كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ»[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ ـ يعني: سَوْطَه ـ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٥].

وأما الكفرة والمنافقون الذين بَقُوا في الدنيا في ظلمات الجهل والكفر والجحود والإعراض والغفلة، ولم يدخلوا في الإسلام والإيمان، ولم يقتبسوا من نوره، ولم ينتفعوا به، فأولئك لهم الظلمات في الآخرة، قد علت وجوههم، وأحاطت بهم من كل جوانبهم، إلى أن يدخلوا النار، حيث مستقر الظلمة، ومحل الندم والحسرة والعذاب، والعياذ بالله.

فهذا حال الفريقين في الدنيا، وهذا حالهم في الآخرة، وكذلك هم في البرزخ،

---

(١) وتمامها: ﴿ جَزَآءُۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩) وغيره.

(٣) أي: ما يحمله ظفر.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٣٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه البخاري (٦/١٥ - فتح)، ومسلم (١٨٨٠)، مختصرًا، وغيرهما.

لا يستوي من كفر ومن آمن، و﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

وعن طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه قال: رأى عمرُ طلحةَ بن عُبيد الله ثقيلًا. الحديث[١]. وفيه: سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا، ما منعني أن أسأله عنه إلا القدرة عليه، حتى مات، سمعته يقول:

«إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ مَوْتِهِ، إِلا أَشْرَقَ لَهَا لَوْنُهُ، وَنَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ».

قال: فقال عمر: إني لأعلم ما هي. قال: وما هي؟ قال: تَعلمُ كلمةً أعظم من كلمةٍ أَمَرَ بها عمَّه عند الموت؟! «لا إله إلا الله». قال طلحة: صدقت، هي والله هي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ (أو قال: أَحَدُكُمْ)، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلآخَرِ: النَّكِيرُ. فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا. ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ. فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ.

وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن امرأة سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجدَ ـ أو

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٨٤) وغيره، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وغيره، وجود إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣/٣٨٠).

شابًّا ـ ففَقَدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها ـ أو عنه ـ، فقالوا: مات. قال: «أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟!» قال: فكأنهم صغَّروا أمْرَها ـ أو أمره ـ فقال: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ». فدلوه، فصلى عليها، ثم قال:

«إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»[1].

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ». الحديث[2]. وفيه:

«فَيُعْطِيهِمْ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ رَجُلًا يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً وَيَطْفِيءُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ فَمَشَى، وَإِذَا طُفِئَ قَامَ».

وفيه: "وَيَقُولُ: مُرُّوا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ نُورِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالسَّحَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الْفَرَسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي أُعْطِيَ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمَيْهِ يَحْبُو عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، تَخِرُّ رِجْلٌ، وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَيُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، فَلَا

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩٧٦٣/٣٥٧/٩) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب » (٣٧٠٤). وأصل حديث الجَسْر (الصراط) في «الصحيحين» وغيرهما، بطوله، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وغيره.

يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ».

وروى ابن جرير، عنه رضي الله عنه قال: «يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالنَّخْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا عَلَى إِبهَامِهِ، يُطْفَأُ مَرَّةً وَيَقِدُ مَرَّةً».

وتقدم[1] حديث جابر رضي الله عنه، وفيه: «وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقًا أَوْ مُؤْمِنًا نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ».

وقد جاء في الحديث أن الناس ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، يكونون في الظلمة دون الجسر، فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ، فجاء حِبْر من أحبار اليهود. وفيه: فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ».

وقال سبحانه وتعالى واصفًا نورَ وجوه أهل السنة والجماعة المعتصمين بحبل الله تعالى، وواصفًا ظلمةَ وجوه أهل الكفر والبدعة والفُرقة، ومآل هؤلاء وهؤلاء يوم القيامة: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٥-١٠٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ

(١) تحت فصل بعنوان: «الإيمان».

﴿ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ {يونس:٢٦-٢٧}.

وقال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠].

وقال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ * وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ * وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ * تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٠-٢٥].

قال ابن سعدي: «أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره، أنكم ﴿تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾، وتسعون فيما يحصِّلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكأن هذه الدار هي دار القرار، التي تبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل، فلو آثرتم الآخرة على الدنيا، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتم وربحتم ربحًا لا خسار معه، وفزتم فوزًا لا شقاء يصحبه.

ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾؛ أي: تنظر إلى ربها على حسب مراتبهم، منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًّا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأَوْه نسُوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم

من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم فازدادوا جمالًا إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾؛ أي: مُعَبِّسة ومكدَّرة، خاشعة ذليلة. ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: عقوبة شديدة وعذاب أليم، فلذلك تغيرت وجوههم وعبست». اهـ

وقال تبارك اسمه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٣٨-٤٢].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾، يقول تعالى ذكره: وجوه يومئذ مشرقة مضيئة، وهي وجوه المؤمنين الذين قد رضى الله عنهم، يقال: أسفر وجه فلان: إذا حَسُن، ومنه أسفر الصبح: إذا أضاء، وكل مضيء فهو مسفر، ﴿ضَاحِكَةٌ﴾، يقول: ضاحكة من السرور بما أعطاها الله من النعيم والكرامة ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لما ترجو من الزيادة».

وقال ابن كثير: «﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ أي: مسرورة فرحة، من سرور قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[1]، قال الزمخشري: «﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار يعلوها، ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكأن الله عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلى الكفر».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) و﴿تَرْهَقُهَا﴾؛ أي: تغشاها،

«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، لَا يَسْقَمُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبْصُقُونَ، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلُوَّةُ؛ [الْأَلَنْجُوجُ[١]: عُود الطِّيب]، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا[٣]»[٤].

وبالمقابل، فإن الظالمين في الظلمات، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٥].

قال ابن القيم[٦]: «والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر ظلمات: ظُلْمة الطَبْع، وظُلْمة الجهل، وظُلْمة الهوى، وظُلْمة القول، وظُلْمة العمل، وظُلْمة المَدخل، وظُلْمة المخرج، وظُلْمة القبر، وظُلْمة القيامة، وظُلْمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاث.

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٣٦٧/٦): «هو العُود الذي يُتَبَخَّرُ به، ولفظ الْأَلَنْجُوجِ هنا تفسير الْأَلُوَّةِ، والعُود تفسير التفسير».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨/٦ و٣١٩ و٣٢٠ و٣٦٢ - فتح)، والزيادة له، ومسلم (٢٨٣٤)، وغيرهما.

(٣) (وما وَلُوا)؛ أي: وما كان لهم عليم ولاية.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٧) وغيره.

(٥) متفق عليه.

(٦) «اجتماع الجيوش» (٤٣/٢).

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة ونبيِّها من النور ما ليس لأمة غيرها، ولا لنبيٍّ غيره».

❑❑❑❑❑

خاتمة

وأخيرًا، أيها العاقل، فإن شأن النور عظيم، وأمره جسيم، ، فإنه مادة الحياة السعيدة في هذه الدنيا، ومصدر الطُّمأنينة والسكينة فيها، وهو مادة الحياة الحقيقية في الآخرة، وسبب السعادة والفوز فيها.

فعظِّم أمره، وأوْلِه اهتمامك، وأعمل فكرك فيما تقدم، وأشغل عقلك بتفهمه وتدبره، ولا تَقْصِر نظرك وتُقَيّد علمك على ظاهر من الحياة الدنيا، فلا تعرف من النور إلا ما تراه بعينك، كحال الكفرة والمعرضين، والجهلة والغافلين، الذين يُقْصون الدين عن حياتهم، وينغمسون في شهوات الدنيا وملذاتها، ويقتصرون على علومها وأعراضها، ويعيشون في ظلماتها، غافلين تائهين، قد فوّتوا حظوظهم من نور الإيمان بالله تعالى وعبادته ومعرفته!! ولم يكترثوا لحاجة قلوبهم وأرواحهم إليه، فخسروا أنفسهم الغالية، وحياتهم الحقيقية، وأضاعوا أعمارهم في العمى والغواية والضلالة.

فهمتهم الدنيا، وكأنه لا حياة لهم سواها، وغفلتهم عن الآخرة، وكأنه لا مَعاد لهم إليها، وكأنه لا قيامة ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب!!

قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم:٧-٨].

فلا والله، لا يستوي الأحياء ولا الأموات، ولا النور ولا الظلمات؟!!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ * إِنْ

أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:١٩-٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد:١٦].

وقال سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال ابن القيم(١): «فأحياه سبحانه وتعالى بروحه الذي هو وحيه، وهو روح الإيمان والعلم، وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظُّلْمة، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظُّلْمة في ظَلامتهم وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان».

قلت: وقوله سبحانه: ﴿ يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾، يفيد أنه لم يكتف بالاستفادة من النور لنفسه، ولم يجعله مقتصرًا عليه، بل مشى به في الناس، وأنار لهم الطريق بالنور الذي معه وأرشدهم، ودعاهم إلى الاهتداء بنور الله عز وجل.

فنور الله جلا وعلا الذي هو كتابه وهداه ودينه (دين الإسلام) قد جعله الله عز وجل للناس أجمعين، وأرسل به رسوله ﷺ رحمة للعالمين، وجعله حاكمًا على كل ما قبله من الأنوار، وظاهرًا عليها جميعًا، إذ هو أتمها وأعظمها وأجلها.

قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣، والصف:٩].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح:٢٨].

---

(١) «اجتماع الجيوش» (٢/٤٢-٤٣).

فأرسل الله سبحانه رسوله ﷺ بالنور ليظهره على الدين كله، وهذا يقتضي أن يُتَّبَع الدينُ في الأرض، وأن يسيطِر، وأن يَحْكُم في كل نواحي الحياة، لا أن يبقى في قلوب أتباعه والمهتدين به، وفي مساجدهم وفي صلواتهم وعباداتهم، لا يخرج عنها، ويُترك الحكم في غيرها لأهواء الناس وآرائهم وأفكارهم وقوانينهم!! وكأنه ضعيفٌ لا يقوى على استيعاب حاجاتهم ومشاكلهم، ليقوى عليها من أخرجهم الله من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأعطاهم قطرة من بحر العلم!!

قال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٤٨].

فيا أيها الناس، هلمُّوا إلى ربكم، وأقبلوا على دينه، واستسلموا لحكمه، واستضيئوا بنوره، لتتخلصوا من أمراض أنفسكم ومجتمعكم، ولتُطَهِّروا أرضكم ودياركم من الفساد والظلم والطغيان، قبل الوقوع في الهاوية، وقبل حصول الداهية، أقبلوا على ربكم قبل فوات الأوان، وذهاب فرصة الإمكان، فلا جدوى والله من غير نور الله تعالى في خلاصكم، والأخذ بأيديكم إلى سعادتكم، في دينكم ودنياكم!

فلا بد للإسلام إذا أُريد أن يعمل ويؤثِّر، وأن ينتشر نوره وينتفع به الناس، لا بد له أن يَحْكُم، فما جاء هذا الدين لينزوي في المساجد، أو يستتر في القلوب والنفوس(١).

وفي الختام، أخي القارئ، أُوصِي نفسي وإياك، أن تسأل الله تعالى النور لقلبك، ولسانك، وسمعك، وبصرك، وسائر جوارحك، وجميع جهاتك، فإن الله هو

---

(١) مقتبس.

نور السموات والأرض، وهو معطي النور وواهبه، وما من خير إلا وهو بيده سبحانه وبمشيئته، ولا حول ولا قوة إلا به.

وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيَّ نُورًا، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا»[١].

وفي لفظ: فذَكَر: «عَصَبِي، وَلَحْمِي، وَدَمِي، وَشَعْرِي، وَبَشَرِي»، وذَكَر خصلتين.

وفي لفظ: قال في آخره: «وَزِدْنِي نُورًا، وَزِدْنِي نُورًا، وَزِدْنِي نُورًا».

والحمد لله رب العالمين.

كتب

محمد شومان الرملي

ذو الحجة/ ١٤٤٣هـ

---

(١) متفق عليه، واللفظ الأخير للبخاري في «الأدب» (٦٩٦) وغيره.

الفهرس

الفهرس

المقدمة.. ٥
الله نور.. ١١
اسم النور.. ٢١
خالق الظلمات والنور.. ٢٥
كلام الله نور.. ٢٧
القرآن العظيم.. ٢٨
تلاوة القرآن.. ٢٩
تدبر القرآن.. ٤١
الذكر نور.. ٤٣
النبي ﷺ نور.. ٥١
الفطرة نور.. ٥٧
الإسلام نور.. ٦٢
الثبات على الإسلام.. ٦٧
الشيب نور.. ٦٨
الإسلام هو دين الله تعالى.. ٦٩
الدين واحد والشرائع مختلفة.. ٧٠
أركان الإسلام.. ٧٩
الصلاة نور.. ٨١
الخشوع في الصلاة.. ٨٦
قيام الليل.. ٨٩
الصيام.. ٩٩
الأسى على الصيام والقيام.. ١٠٢
الجهاد.. ١٠٣

الصبر ضياء.......... ١٠٧
الإيمان نور.......... ١١٠
التوحيد.......... ١١٣
العلم نور.......... ١١٤
نوعا العلم بالله عز وجل.......... ١١٨
طريقا معرفة الله عز وجل.......... ١١٩
جمال الله عز وجل.......... ١٢٣
التحاب في نور الله.......... ١٢٥
محبة الله تعالى.......... ١٢٩
الإحسان نور.......... ١٣٢
حسن الخلق.......... ١٣٣
سلامة الصدر.......... ١٣٧
التقوى نور.......... ١٤٤
غض البصر.......... ١٤٨
التوبة نور.......... ١٥٠
السير إلى الله تعالى.......... ١٥٣
الكفر ظلمات.......... ١٥٦
المعاصي ظلمات.......... ١٥٧
صغائر الذنوب.......... ١٥٨
التحذير من البدع.......... ١٦٠
أنوار الآخرة.......... ١٦٤
خاتمة.......... ١٧٤
الفهرس.......... ١٨٠

تم بحمد الله